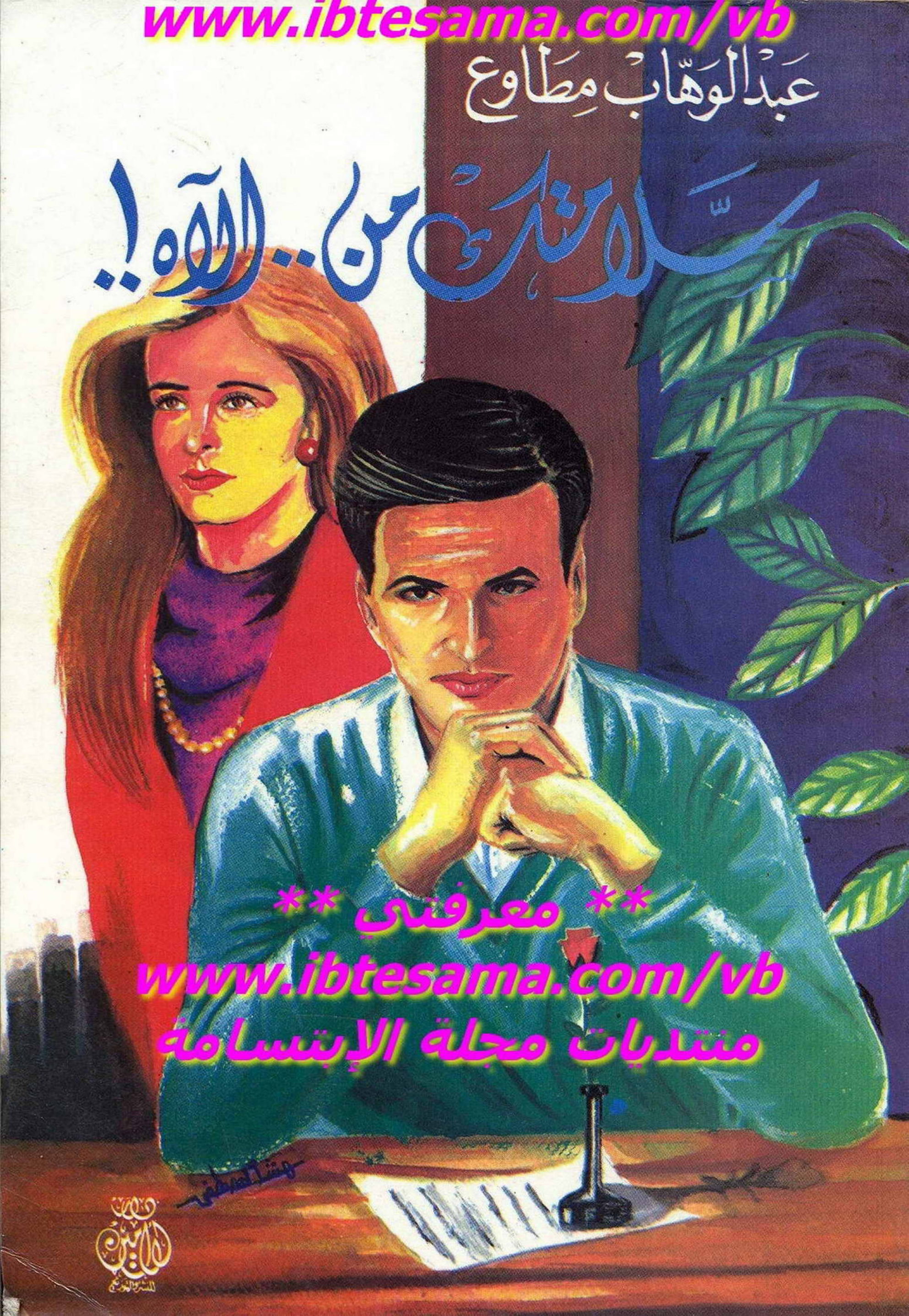

www.ibtesama.com/vb
عبد الوهاب مطاوع
سلامتك من.. الآه!
** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

سلامتك من.. الآه!

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم


دار الأمين

**طبع * نشر * توزيع**

**القاهرة :** ١٠ شارع بستان الدكة من شارع الألفى (مطابع سجل العرب) تليفون : ٥٩٣٢٧٠٦

ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

**الجيزة :** ٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة تليفون / فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم

ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١





**الطبعة الأولى**

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع ٢٥٧٢/١٩٩٧

ISBN

977-279-114-5

الإخراج الفنى : **جمال فتحى أحمد**

عبد الوهّاب مطاوع

# سلامتك من.. الآه!



# هذا الكتاب !

كتبت فصول هذا الكتاب على مدى أكثر من عامين وبفاصل زمنى بين كل مقالة وأخرى لا يقل عن شهر ، ومع ذلك فلقد شعرت حين جلست لكى أراجعها وأجمعها فى كتاب كما لو كنت قد كتبتها كلها فى جلسة واحدة متصلة !

فالروح التى تسرى فيها كلها واحدة . . . والنغمة التى تعزفها بتنويعات مختلفة أيضًا واحدة وهى الدعوة لأن نتعلم جميعًا كيف نحيا حياتنا بالطريقة الصحيحة . . وكيف نبتهج بالحياة ونستمتع بها رغم الصعاب والآلام . وكيف نحاول دائمًا تحجيم مساحة الشر والخسائر الإنسانية فيها ، ونوسع من دائرة الخير والحق والجمال فى رحلتها . . وأن نؤمن دائمًا بخيريَّة الحياة وبالمثل العليا الجديرة بأن نعتصم بها وسط هدير أمواج الحياة المتلاطمة من حولنا .

إنه كتاب يؤمن ببهجة الحياة كتبت معظم فصوله للشباب ، وآمنت دائمًا بأن الشباب ليس مرحلة سِنِّية تنقضى بانتهائها ، وإنما هو حالة

وجدانية وعقلية يستطيع الإنسان أن يتعامل بها مع الحياة من بداية الرحلة إلى نهايتها ، إذا احتفظ بصفة واحدة من صفات الشباب هى الحماس !

وبهذا المفهوم الصحيح للشباب نستطيع أن نتفاعل مع الحياة وأن نتعلق دائمًا بالأمل فى غد أفضل وألا نفقد أبدًا قدرتنا على تذوق الأشياء الجميلة فى الحياة والابتهاج بها ، مهما بدت للآخرين من فاقدى الحماس والمصابين بفشل الروح أشياء بسيطة وعادية ولا تلفت أنظار الآخرين .

أما فصل « سلامتك من الآه » الذى اخترت عنوانه لهذا الكتاب فلقد كتبته انفعالاً بأحزان شاب وحيد نشرت رسالته فى بريد الجمعة بالأهرام . . وكان يشكو لى فيها من وحدته القاتلة بعد رحيل أمه ، ومن قبلها أبيه ويقول لى إنه يعجب لزملائه الشباب بالجامعة الذين يشكون من قيود الأهل عليهم ومحاسبتهم لهم عن تأخرهم خارج البيت إلى وقت متأخر من الليل ويتلهفون على اليوم الذى يصبحون فيه « أحرارًا » من كل قيد ، ويروى لى أنه يحيا هذه الحياة « الحرة » الآن ويخرج حين يشاء ويرجع حين يشاء ، فلا يجد من يسأله عن أسباب تأخره فى الخارج ويعزف أحيانًا عن مغادرة البيت للذهاب إلى كليته فلا يسأله أحد عن أسباب عدم ذهابه إلى الكلية لسبب بسيط هو

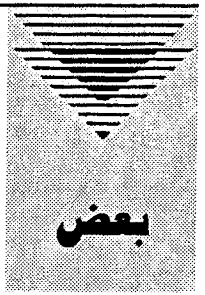
أن أمره لم يعد يهم أحدًا فى الكون كله سواه . . ولهذا فهو يفتقد هذه القيود العائلية التى حُرم منها بعد رحيل أمه . . والتى لا يقدرها بعض الشباب ولا يدركون أنها قيود الحب والرعاية والاهتمام بأمر الإنسان !

ولقد أثارت هذه الرسالة تأملاتى وأعادتنى إلى مرحلة من حياتى عشت فيها نفس وحدته الكاملة بعيداً عن الأهل ومحرومًا من «قيود» حبهم واهتمامهم بأمرى فكتبت هذا الفصل . . ورويت فيه تجربتى مع الوحدة وافتقادى فى تلك المرحلة من عمرى لمن يهتم بأمرى .

فلعلك يا صديقى إذا قرأت هذا الكتاب تشاركنى رؤيتى للحياة ومحاولاتى للتفاعل السليم معها . . ولعلك أيضًا تشاركنى تقديرى لحب الأهل واهتمامهم بأمر الإنسان . . وإيمانى بأهمية أن يجد كل إنسان فى حياته من يخفق قلبه له بالحب والعطف والاهتمام ، ومن يقول له حين يحتاج إلى التعاطف الإنسانى : سلامتك من الآه .

**عبد الوهاب مطاوع**

# خيبة الشك !



**بعض** الأحداث الصغيرة قد تترك أثرًا كبيرًا فى نفسك وتفكيرك ورؤيتك للحياة ! أما ذلك الحادث العابر الصغير الذى أحدثك عنه فلقد جرى لى فى طفولتى وأنا فى السادسة أو السابعة من العمر ، أمام البيت بشارعنا بمدينتى الصغيرة دسوق . فلقد كان لشارعنا كغيره من شوارع مدن الأقاليم الصغيرة «شمال غنى» . . و«جنوب فقير» ، كما هو الحال الآن فى الكرة الأرضية ، إذ كان يتقاطع أو يصبُّ فى شارع المدينة الرئيسى ، فكانت البيوت الأقرب إلى الشارع الرئيسى فى « الشمال » يقيم بها متوسطو الحال من التجار والموظفين والبيوت التى توغل فى اتجاه الجنوب يقيم بها البسطاء من العمال وأهل الحرف والباعة الجوالين . أما الطفولة فلم تكن تعترف بالفوارق الاجتماعية ، فأطفال الجميع يلعبون معًا بالكرة وباقى الألعاب ، ولا أغالى إذا

قلت : إن أبناء متوسطى الحال كانوا يغبطون أبناء البسطاء على «نعم» جليلة عديدة كانوا هم محرومين منها . . أعظمها نعمة «الحرية» التى كانوا يستمتعون معها باللعب فى الشارع بالجلاليب الفضفاضة المريحة من طلعة النهار إلى أن يتأخر الليل ، فى حين يجبرنا الأهل لأسباب غير مفهومة لنا على أن نحرم أنفسنا من هذه « البهجة» ويرغموننا على الذهاب كارهين فى الصباح الباكر إلى المدرسة وقد انحشر كلٌ منا فى بنطلون قصير ضيق ، وقميص مزعج يحتاج ارتداؤه إلى معالجة كل هذه الأزرار السخيفة ، ناهيك عن الجورب الذى لا معنى له . . وهذا الحذاء الضَّيق الصلب الذى لابد له أن يكون لامعًا وإلا تعرضنا للعقاب فى طابور الصباح كما لابد لأظافرنا أن تكون مقصوصة جيداً وإلا هوت عليها مسطرة الناظر بلا رحمة خلال تفتيشه اليومى على نظافتنا الشخصية ، ثم نساق بعد كل هذا «الهوان» فى الطابور إلى الفصول حيث نجلس فى سكون كالمساجين . . ونخضع للأحكام العرفية التى يفرضها علينا مدرس الفصل فلا يتنفس أحد منا إلا بإذنه ولا يَقصرَنّ أحد منا فى حفظ هذه « الخزعبلات » التى يفرضون علينا نقلها عن السبورة وترديدها ترديداً جماعيًا حتى نحفظها ونؤدى الامتحان فيها . وبينما نقوم نحن بهذه الأشغال الشاقة ونخضع لهذا «القهر» مترقبين بفارغ الصبر انتهاءه ، كما يترقب المسجون بلهفة يوم الإفراج عنه ، يكون رفاق الشارع « الأحرار » فى نفس اللحظة يمرحون فى ملاعبهم وملاهيهم وعبثهم بفضل بُعد نظر آبائهم الذين لم يرضوا لهم بما رضى لنا به آباؤنا من إذلال مدرسى ! فمن يستحق

إذن أن يحسد الآخر على حياته و« حريته » و« حكمة » أولياء أموره ؟ نحن سجناء المدارس . . أم هؤلاء الرفاق الأحرار ؟ لقد كنا نغبطهم حقًا ليس فقط على تحررهم من هذا الذل المدرسى . . وإنما أيضًا على تحررهم من أداء الواجبات المدرسية السخيفة . . التى نعجب كيف «تقسو» قلوب الأهل علينا فتحرمنا من مشاركة رفاق الشارع لعبهم البديع إلا بعد أدائها . . ونعجب أكثر لقسوتهم الأشد علينا حين ينتزعوننا انتزاعًا من حلقة الصغار الملتفة تحت عمود النور فى الشارع تتبادل رواية الحكايات العجيبة والطرائف المثيرة لكى نأوى إلى فراشنا فى وقت مناسب بدعوى الاستيقاظ مبكرًا للذهاب للمدرسة اللعينة فى حين يواصل « الأحرار » سهرتهم البهيجة دوننا إلى وقت متأخرٍ !

ولو أنك سألت طفلاً فى مثل ظروفى وقتها عن أمنية حياته لأجابك بلا تردد بأنها أن «يتفتح» عقل والديه ويتفهَّما جيدًا «حقائق» الحياة ويتنازلا عن بدعة التعليم هذه التى تحرم أولادهما من كل هذه المتع البهيجة !

لكن هكذا جرت علينا المقادير . . ولم نكن فى وضع يسمح لنا «بالمقاومة» حتى بلوغ النصر ! فرضينا بما لا حيلة لنا معه وتواصلت أيامنا . وفى ذات أصيل كنت ألعب مع بعض الرفاق الكرة أمام البيت فمرت بجوارنا طفلة صغيرة من سكان الجنوب فى السادسة أو السابعة من عمرها ، وهى تحمل طبقًا فارغًا ، ويبدو من هيئتها أنها فى طريقها لكى تشترى فيه الفول من الشارع الرئيسى ، فما أن تجاوزتنا بقليل حتى توقفت وراحت تفتش فى ملابسها ، وفى الأرض

عن القطعة المعدنية من فئة الخمسة قروش أو «الشلن» كما كنا نطلق عليها ، التى أعطتها لها أمها لتشترى الفول ، ويبدو أنها قد اكتشفت ضياعها أو سقوطها منها فى الطريق ويئست من العثور عليها ، وتمثلت ما سوف ينتظرها من عقاب بدنى صارم من أمها إذا عادت إليها بالخيبة . فانفجرت فجأة فى البكاء والولولة . . ولم تكتف بهذا بل وصاحت أيضًا منادية أمها من اتجاه الجنوب وقالت لها فجأة وهى تصرخ وتولول : إن « فلانًا » - أى محسوبك - قد أسقط الشلن من يدها وهى فى طريقها لمحل الفول فاختفى فى التراب !

وذهلتُ لهذا الاتهام الظالم . . وتعجبت له كثيراً وأنا الذى لم أقترب من هذه الطفلة ولم ألمسها ولا أعرف شيئًا عمًّا فقدت . . وتساءلت مندهشًا :

أنا يا فلانة ؟

فأجابتنى بإصرار غريب : نعم أنت !

كيف ياربى وقد كنت منهمكًا فى اللعب مع رفاقى ولا شأن لى بهذه الطفلة ، ولماذا تخصنى أنا وحدى بهذا الاتهام وحولى عدد لا بأس به من رفاق اللعب؟ لم أفهم ذلك أبدًا ولم أستوعبه فى حينه ، واعتبرت المسألة « مسألة شرف » ولابد لى من الانتصار فيها ودفع هذا الاتهام المجحف عنى ، وقبل أن أتخذ أية خطوة للدفاع عن نفسى ، وجدت أم الطفلة تقترب ساحبة إياها فى يدها وهى تعنفنى بصوت «أوبرالى» على إضاعة هذا الشلن بعبثى ورعونتى فى يد طفلتها الجادة

الملتزمة ، فانبريت أدافع عن نفسى وأقسم لها بأغلظ الإيمان على براءتى مما تتهمنى به ابنتها ، واستشهدت برفاق اللعب فأيدوننى جميعًا فى ذلك ، لكن هيهات أن تقتنع الأم إلا بما قالته لها ابنتها ، وبدأ صوتها يعلو أكثر وأكثر وبدأت أنا أُجَن لهذا الاتهام الفاجر . . وعرضت على الأم أن أرجع للبيت لإحضار مصحف شريف أقسم عليه بأننى لم أضعْ هذا الشلن المنحوس . . وتحمَّس الرفاق لاقتراحى . . وتَصورت أن ذلك سوف ينهى القضية بسلام ويخرجنى منها مرفوع الرأس محفوظ الكرامة فإذا بى أتلقى « طعنة غادرة » من آخر إنسان فى الوجود أتوقع منه أن يخذلنى فى هذا الموقف العصيب وينضم فيه إلى خصومى بدلاً من الدفاع عنى وهو أمى ! فلقد فوجئت بها تتدخل فى الحديث من شرفة البيت وتطيب خاطر أم الفتاة وتعتذر لها عن شقاوتى ورعونتى وتشهد «شهادة الزور» بأنها قد شاهدت كل شىء من البداية وأننى المسئول فعلاً عن ضياع هذا الشلن ، ثم تتبع ذلك بأن تلقى إلى أم الطفلة منديلاً ملفوفًا به قطعة معدنية من فئة الشلن ، فتتناوله الأم وتفكه وتخرج القطعة منه ، وتأخذها وترد إلىّ المنديل وهى تنصحنى لوجه الله بالكف عن مثل هذا العبث الذى يعرضنى للمتاعب ، ثم تسحب ابنتها فى يدها وتمضى راضية ، وأنا أكاد أنشق نصفين بالطول من الكمد والقهر والشعور بالخيانة والخذلان من جانب أمى لى .

وهرولت إلى البيت غاضبًا ومطعون الكرامة . . وعاتبت أمى عتابًا مريرًا على « خذلانها » لى بدلاً من أن تدافع عنِّى وتنصرنى على

من افترى عليّ ظلمًا ، وسألتها كيف شهدت بأنها قد رأتنى وأنا أرتكب هذه الجريمة ، وهى التى لم تخرج للشرفة إلا حين سمعت صوت أم الطفلة «الحيّانى» ولم أفهم شيئًا مما قالته لى تبريرًا لموقفها «المتخاذل» هذا منى وأنا فى غمار معركة من معارك الشرف والكرامة! وظللت مكتئبًا بقية النهار وشكوتها لأبى حين رجع من عمله فى المساء ودافعت عن نفسى بحرارة أمامه فلم أعد أذكر من رد فعله لما قلته له وقتها سوى ابتسامته الهادئة وتأكيده لى بأنه يعلم عن يقين وكذلك أمى أننى برىء مما ادّعته علىّ هذه الطفلة ، لكن هناك ظروفًا أخرى تبرر لأمى من وجهة نظره ما فعلت وما ارتكبت فى حقّى من «خيانة» وحاولتُ قدر جهدى أن أستوعب ما قاله لى بعد ذلك من أن هذه الطفلة ابنة قوم بسطاء يمثل « الشلن » وقتها بالنسبة إليهم شيئًا ذا بال ، وأنها كانت قد عرفت جيدًا أنها سوف تنال عقابًا قاسيًا على إضاعته ، فتلفتت حولها واختارت « ضحية » تعرف أنها قادرة على دفع هذه الفدية البسيطة التى تفتدى بها نفسها من العقاب الذى ينتظرها فكنتُ أنا هذه الضحية ، ولا شىء فى ذلك . . ولا يحق لى أن أحزن أو أغتاظ إلخ !

وزادنى هذا المنطق « الفاسد » عجبًا على عجب !ورأيت فيه بعقلى «الناضج» ضعفًا وتخاذلاً لا يليقان بالشرفاء من الناس ! وأنكرت على أبى وأمى فى أعماقى هذا الضعف المخزى مع البُغاة والظالمين ! ثم مضت الأيام فى طريقها المرسوم ومرت تحت الجسور مياه كثيرة

وتقدمتْ فى السن والتجربة فوجدتنى كلما تقدم بى العمر أتفهم شيئًا فشيئًا « حكمة » هذا الضعف والتخاذل من جانب أبوىَّ فى هذا الحادث العابر ، واكتشفت عناصر القوة فيه وليس الضعف ، ووجدتنى أسترجع موقفهما وكلماتهما بشأنه فى مواقف عديدة فيما واجهت بعد ذلك من تجارب واختبارات ، وعرفت يومًا بعد يوم أن من مواقف الحياة ما لا ينبغى لك أن تستسلم فيه لشهوة الرغبة فى الانتصار بأى طريق وإثبات سلامة موقفك لأن انتصارك فيها لايشرفك كثيراً ، ولأن هزيمتك فيها ربما كانت أشرف لك من الانتصار ! وأنه أيضًا من مواقف الحياة مالا تشينك فيه الهزيمة أو التنازل عن حقك بنفس راضية لأن الهزيمة فيها لا تعنى ضعفًا ولا تخاذلاً وإنما تعنى تعففًا عن منازلة من هم أضعف منك ، أو من لا يشرفك من الأصل الوقوف منهم موقف الخصم والتنازع معهم حول أمر هين من أمور الحياة حتى ولو كنت أنت على حق ، وهم على خطأ !

إذ ماذا يعنى لك مثلاً « النصر » فى نزاع تخوضه بينك وبين ذوى القربى أو الأشقاء أو شركاء الحياة السابقين أو الأصدقاء القدامى الذين تسببت بعض أمور الحياة فى الاختلاف معهم ؟

وماذا يضير الإنسان إذا تعفف عن منازعة أمثال هؤلاء ولو كان على حق فى موقفه حفاظًا على أواصر القربى وعلاقات الأشقاء والأهل، واحترامًا لذكرى العشرة السابقة . . أو الصداقة القديمة . .

إنه أشرف لك فى بعض هذه المواقف أن تعترف كذبا بأنك قد

«ضيَّعت الشلن» . . وتتجنب النزاع معهم وترضى نفوسهم بشيء قليل من المرونة والترفع عن الصغائر فتنأى بنفسك عن أن تقف موقف الخصم فى نزاع علنى مع من هو دونك . . أو مع من تربطك به أواصر الرحم والقربى ، أو كانت تربطك به شركةالحياة السابقة أو الصداقة المنقضية . . فإذا كان ذلك « هزيمة » من وجهة نظر البعض فهو على الناحية الأخرى « انتصار » لقيم إنسانية ومعنوية وعائلية جديرة بالتضحية من أجلها بشيء من حقوقك لو تطلب الأمر ذلك ، وهو أيضًا تعفف عن منازلة من يسيء إليك أنت فى المقام الأول ، مجرد التنازع معهم علنًا على شئ يمكن تسويته والحفاظ على بقية الروابط الإنسانية بشيء قليل من التضحية أو المرونةوقد وجدتنى فيما بعد أوصى الآخرين ونفسى كثيراً بهذا المنطق « الفاسد » الذى أنكرته فى طفولتى على أبى رحمه الله فأنصح قارئًا شكا لى من تعسف شقيقه واختلافه معه حول تقسيم الميراث ، بأن يحاول الاستعانة بالأهل وحكماء الطرفين فى حل النزاع بالطرق الودية ، فإذا أعيته معه كل الحيل ، فلا يلجأن بعد ذلك إلى القضاء لحسم النزاع ، وليسلمن له بما أراد ولو كان ظالمًا لأن مجرد وقوفه أمام شقيقه فى ساحة القضاء لا يشرفه حتى ولو كان على حق بيّن ، ولأن الله بعد ذلك وقبله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وإذا كان شقيقه سادراً فى غيّة فليسلم له بما ليس من حقه ، ولن يبارك له الله فيه ، ولسوف يعوضه ربه هو عنه بما هو خير وأبقى ، واستجاب الرجل الفاضل لنصيحتى وعمل بها وسلم لشقيقه بما أراد وكان الخلاف أصلاً على تقسيم بعض أصول

الميراث فحصل الشقيق الظالم على أفضله ، وترك لشقيقه ما ظنه هُملا وخاسراً ، فلم تمض سنوات حتى زارنى نفس هذا القارئ وروى لى من أمر شقيقه الذى فاز بنصيب الأسد من التركة ما أكَّد لى من جديد أن عين السماء لا تنام ، وروى لى من أمره هو ومن نعمة ربه عليه ما يشكر الله عليه آناء الليل وأطراف النهار ، مؤكداً لى أنه ليس شامتًا فى شقيقه وحاشاه أن يفعل ذلك ، لكنه يشفق عليه من نفسه ومما جرّه عليه جشعه وطمعه وظلمه لشقيقه من هلاك وديون وأمراض وخسائر ! وما ربك بظلام للعبيد !

وتكرر هذا الموقف معى مراراً وتكراراً فى تجاربى مع القرّاء الذين يستشيروننى فى أمرهم ، وفى تجاربى الخاصة ، ولم أندم قط على مشورتى للآخرين بهذا المنطق « الفاسد » القديم ولا على العمل به فى تجاربى الشخصية بل ووجدت فيما بعد فى قراءاتى ما عمّق لدىَّ هذا الفهم الصحيح للحياة الذى عجزت عن استيعابه فى طفولتى ، فقرأت للخليفة العبَّاسى المأمون مثلاً كلمة غريبة يقول فيها : من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه !

بمعنى أن من علامة الشريف أن يصمد للنزاع والصراع إذا تنازع مع من هو أقوى منه ، وأن يتعفف عنهما إذا اختلف مع من هو أضعف منه أو أقل شأنا ، ولأن الأشياء تعرف بأضدادها فمن علامة الخسيس أن يتخاذل ويستضعف أمام من هو أقوى منه ، وأن يستأسد ويتجبَّر على من هو أضعف منه !

كما وجدت فى قراءاتى أيضًا ما يضيف إلى ذلك إضافة أخرى

ثمينة فى قول الإمام على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه : الجبن الحقيقى هو الجُرْأة على الأخ أو الصديق ، والنكوص عن العدو !

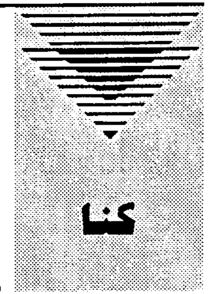
وفى قول فيلسوف الصين لو- تسى : قابل الرحمة بالرحمة . . وقابل القسوة بالرحمة أيضًا !

فإذا كان الفيلسوف كونفوشيوس الذى كان معاصراً له لم يعجبه هذا الرأى وقال - بل قابل الرحمة بالرحمة . . وقابل القسوة بالعدل ، فلقد كان كلاهما على حق فيما قال رغم ما يبدو لك من اختلافهما فى الرأى، إذ كان لو- تسى رجلاً شعبيًا فصاغ مبدأه هذا فيما يتعلق بحقوق الإنسان الشخصية ، وكان كونفوشيوس رجل دولة وحاكمًا لإقليم فنظر للأمر من زاوية المصلحة العامة وحقوق المجتمع .

فإذا كان الأمر كذلك . . فلماذا لا تعترف معى بأنك قد ضيعت «الشلن» فيظنك الجاهل مهزومًا . . ويشهد لك العاقل بالنصر المؤزر ويعرف لك قدرك وشرفك وتعففك عن الدنايا ، ويزداد لك احترامًا ، وتزداد أنت رضًا عن نفسك وسلامًا معها . . ومع الحياة ؟!



# إبرة .. وفتلة !



كنا في فجر الشباب وكان لى صديق طفولة فرّقت بيننا الدراسة الجامعية حين غادرنا مدينتنا الصغيرة بعد الثانوية العامة ، فالتحق هو بجامعة الإسكندرية والتحقت أنا بجامعة القاهرة . . وتواصلت الصداقة بيننا وتعمقت وأنهى كل منا دراسته ، وأقام بشقة صغيرة جميلة فى مدينته ، فأصبحنا نتزاور فى مواعيد شبه دورية فنقضى معًا بضعة أيام ليست من حساب العمر .

فإذا زارنى فى العاصمة تفرغت لملازمته منذ انتهاء عملى حتى الصباح التالى وذهبت إلى العمل وأنا أترنَّح من آثار قلة النوم . . وأتعجب لنفسى كيف استطعت العمل دون أخطاء مع أنى فى غاية الإرهاق ، ويظل هذا هو شأنى طوال أيام زيارته لى ومع ذلك

فالأوقات سعيدة . . والضحك من القلب لكل لفتة وكل بادرة . والاستمتاع فى قمته بكل شيء نتحدث فيه أو نمارسه ، وحين يغادرنى عائداً إلى عمله ومدينته أعوض ما فاتنى من نوم خلال الزيارة ، أما إذا زرته فى الإسكندرية فلقد كنت أشفق عليه من أن تنتهى زيارتى له ذات مرة بفصله من عمله ، فمواعيد عملى بالصحافة كانت تسمح لى بقدر من المرونة والحرية أكبر مما تسمح به مواعيده وقد كان وقتها يعمل محاسباً بعقد مؤقت بإحدى الشركات فى انتظار تعيين القوى العاملة . . وما أسهل الاستغناء عنه إذا تكررت أخطاؤه بسبب قلة النوم . . أو إذا تغيب عن العمل بغير عذر ، لذلك فقد تنبأت له «ببشرى» مؤكدة هى أنه لابد سيفصل من عمله ذات مرة إذا لم يرتب إجازته فى العمل مع إجازاتى حين أزوره ، وظل هذا الهاجس رغم تندرنا به يهجس داخلى من حين لآخر ، حتى اعتدت وأنا فى زيارته ، أن أفتح باب غرفة نومه فى الصباح حين أستيقظ براحتى فى الظهيرة ، فإذا لم أجده فى فراشه « اطمأننت » إلى أن رزقه لم ينقطع بعد وأنه قد ذهب إلى عمله فى سلام ! . . ولا يطول الوقت حتى يرجع من عمله مصفر الوجه مرهقاً فيخطف ساعة أو بعض ساعة من النوم ثم نواصل « الاحتفال » ! الاحتفال بماذا ؟ لا أعرف على وجه التحديد . . فنحن فى مهرجان دائم لا مناسبة له . . وحديث الذكريات الضاحكة متواصل ، ولا هم لنا إلا الاستمتاع بصحبتنا

وبمشاغبة صديق طفولتنا الثالث الذى يقيم فى الإسكندرية أيضًا ، ويبدو أكثر حرصًا منا على ألا يفقد عمله ، فيختفى فى أماكن سرِّية بضع ساعات كل يوم لينام ملء جفونه بعيداً عنا ثم يلحق بنا لمواصلة الاحتفال بمهرجان الصداقة الصافية والود المتبادل ، والقلوب المحبة للحياة ، وكثيراً ما أشرق الصباح علينا ونحن جلوس على أريكة على كورنيش الإسكندرية وأحدنا يروى للآخرين قصة انتهى الليل ولم تنته بعد ، كما أننا فى حالة « تحالفات » متغيرة باستمرار من يوم إلى يوم بل من ساعة إلى أخرى يتآمر فيها اثنان على ثالثنا لتوريطه فى دعوة عشاء ، أو إفطار . . أو مكايدته باسترجاع ذكرى معينة لا يحب استرجاعها ولا استمرار لتحالف أو « عداوة » فحليفا الأمس قد يصبحان «خصمين» بعد قليل حين تتغيَّر التحالفات . . والنتيجة واحدة فى كل الأحوال وهى مزيد من الاستمتاع بالصداقة الصافية والقلوب الخالية والمواقف الطريفة ، وذات مساء التقينا نحن الثلاثة وصديقى المحاسب « غاضب » منى ويشكونى لصديقنا . . وأنا مبهور الأنفاس من الضحك وأحاول استرضاءه والدفاع عن نفسى وشرح موقفى عبثًا ! والحكاية هى أننى استيقظت ذلك اليوم فى الظهيرة بعد سهرة سعيدة مع الأحباء ، ففتحت باب غرفة نومه « لأطمئن » على «رزقه» كعادتى خلال زيارتى له ففوجئت به ممدداً فى فراشة وغارقًا فى النوم ونحن فى الظهيرة فماذا يقول لى « عقلى » المشوِّش من أثر

النوم سوى أن « أمر الله » قد نفذ وأنه قد فصل بحمد الله من عمله فى اليوم السابق ولم يذهب إلى عمله هذا الصباح ، لقد شاء له حظه العاثر أن أسمع فى نفس اللحظة وأنا بين النوم والاستيقاظ - وهذه الخواطر تلح على - نداء أحد أصدقائنا المشتركين من الشارع فخرجت إلى الشرفة فإذا بالصديق يخاطبنى من الشارع ويقول لى إنه مر بصديقى المحاسب فى عمله فلم يجده فيه . . ولم يجد من زملائه من رآه أو سمع عنه شيئًا منذ أيام ، فتحولت « الهواجس » على الفور عندى إلى «يقين» . . وصارحت صديقنا الواقف فى الشارع بها وقلت له هامسًا» من شرفة الدور الثالث . يبدو أنه قد حدث ما كنت أخشاه . . وفصلوه من عمله !

فلم يسمع صديقنا كلامى جيدًا لحرصى على ألا أرفع صوتى أكثر مما يجب مراعاة لحرج الموضوع . . أو لعله سمعه وأراد أن « يستمتع » أكثر بما سمع فاستوضحنى ما أقول فأعدت عليه ما قلت بصوت أعلى قليلاً : يبدو أنهم فصلوه ! فلم يسمع جيدًا أيضًا أو هكذا بدا لى ورجانى أن أرفع صوتى أكثر وأكثر وهو يضحك فلم أجد مفرًا من الاستجابة لرجاء الصديق وكررت عليه الكلمة المفيدة من الجملة المقصودة . . وأكدت على مخارج الحروف وأنا أنطقها لكيلا أدع مجالاً لأى التباس فى الفهم وقلت له « هامسًا » بصوت مدوٍ :

- فصلوووه !

فإذا بى أسمع صوت صديقى المحاسب يأتينى من فراشه صارخًا : لم يفصلنى أحد . . الله يخرب بيوتكم . . أنا فى إجازة !

ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن سمع الجيران كلهم فى « همستى الخافتة » نبأ فصله من عمله بسبب عدم انتظامه فى الذهاب إليه ونهض صديقى من نومه ساخطًا . . وصعد إلينا الصديق الآخر من الشارع وشاركنى « مواساته » وتخفيف وقع ذيوع الخبر الكاذب عليه وكلانا يؤكد له وهو يتكتم ضحكه أنه لم يسمعه سوى سكان العمارة والعمارات المجاورة فقط ، وكلما ازداد سخطًا ازددنا نحن مرحًا . . ولومًا له لأنه لم يبلغنا بنبأ إجازته وانتقاله من مكتب الشركة الرئيسى الذى سأل عنه فيه صديقه إلى فرع آخر من فروعها .

وفى المساء انعقدت جلسة العتاب بحضور صديق طفولتنا الثالث . . وفُجع فيه صديقى المحاسب ، من البداية حين ضحك للقصة ، باستمتاع شديد بدلاً من أن يغضب لها كما توهم أنه سيفعل واضطر الصديق المحاسب فى النهاية إلى الضحك من الموقف كله . . وقال وهو ينفخ من الغيظ أنه يسلم بحسن نيتى وقلقى عليه فيما قلت ، لكنه « مغتاظ » فقط من «الإخلاص» الزائد فى مد حرف الواو فى كلمة : فصلووه ! لكى يفهم من لم يفهم أنه قد تعرض للفصل من

عمله « فابتهجنا » أكثر بما قال وضحكنا له وأضيفت القصة إلى تراثنا الضاحك وتناقلناها عبر الخطابات .

أما أنا فقد تعلمت منها درسا ثمينًا من دروس حياتى . . ووجدت له ترجمة أمينة فى كلمة حكيمة لكاتب أمريكى يقول فيها : لا يكفى أن يكون الإنسان أمينًا ونياته طيبة تجاه الآخرين بل يجب أن يكون أيضًا متمتعًا بحسن الإدراك والفهم . . لأننا قد نسىء إلى الآخرين بعدم الإدراك وبعدم الفهم أحيانًا أكثر مما قد نسئ إليهم بالقسوة والظلم !

وهذا صحيح تمامًا فلقد أسأت إلى صديقى هذا بعدم إدراكى لحساسية الحرج الشخصى فى الموضوع وبعدم التحفظ أكثر مما أحسنت إليه باهتمامى بأمره !

ومع هذا الصديق نفسه شهدت حكاية أخرى بعد عامين أو ثلاثة تعلمت منها درسًا آخر من دروس الحياة وأضفته إلى خبراتى العملية . . فلقد ساءت علاقته لأسباب لم أعد أذكرها بصاحب العمارة التى يقيم بها وبدأ كل منهما يكيد للآخر ويستدعيه لقسم الشرطة فى ادعاءات مختلفة ، وأحسَّ صديقى المحاسب بحاجته إلى الحماية فوثق علاقته بوكيل نيابة شاب من معارفه البعيدين وأصبح يكثر من زيارته ومن دعوته للزيارة . . ويكثر من الحديث عنه وعن صداقته له مع البواب والسكان وصاحب العمارة ويردد اسمه دائمًا

متبوعًا بلقب بيه فيقول بلا مناسبة جاءنى أمس فلان بيه وكيل النيابة أو كنت أمس فى زيارة فلان بيه وكيل النيابة وهكذا كأنما يقول لمن يعنيه الأمر أنه إذا توسل صاحب العمارة بمعارفه من الشرطة لإيذائه ، فسوف يجد من يدفع عنه هذا الاعتداء من أصحاب الشأن ورأيت وكيل النيابة هذا مع صديقى فيما بعد وكان شابًا مهذبًا ومتزنًا وكان صديقى يبالغ فى مجاملته واحترامه إلى حد المغالاة فى ذلك أملاً فى مساعدته له عند الضرورة حتى اقترحت عليه ذات مرة مداعبًا أن يرفع اللافتة النحاسية التى تحمل اسمه ووظيفته كمحاسب من باب الشقة ويضع بدلا منها لافتة أخرى مكتوبًا عليها فلان الفلانى . . صديق فلان بيه وكيل بيه النيابة ! . . إمعانًا فى الاحترام للنيابة ورجالها ! واستمر الموقف على ماهو عليه بينه وبين صاحب العمارة إلى أن كنا جميعًا نحن أصدقاء الطفولة الثلاثة وصديقه الجديد فلان بيه وكيل النيابة فى مسكنه ذات مساء ففوجئنا بطرق شديد على الباب ، وفتحنا فوجدنا صاحب العمارة والبواب وشرطيًا جاء يدعو صديقنا للذهاب إلى قسم الشرطة للتحقيق فى بلاغ كيدى جديد مقدم من صاحب العمارة واحتدّ صديقى على صاحب العمارة . . فهجم كل منهما على الآخر يريد الاشتباك معه ، وأسرعنا نحن بالحيلولة بينهما وتجاذبنا هذا بعيداً عن ذاك وتدافعنا جميعًا شمالاً ويمينًا حتى استطعنا التفريق بينهما بصعوبة بالغة . . ثم دعونا صاحب العمارة ومن معه للتفاهم بالحسنى وإنهاء هذا النزاع الذى لا طائل تحته . . وقبل الرجل

التفاهم إكرامًا لنا وتعهد بأن يرضى بحكمنا فى النزاع بينه وبين صديقى ، وناشدت الجميع الهدوء وأن يشرح كل منهما مبرراته لما فعل فتنازعا على من يبدأ منهما الكلام . . وكادا يتشابكان مرة أخرى حتى نجحنا بجهد جهيد فى تهدئة الموقف وإقناع صاحب العمارة بأن يسمح لصديقنا بالكلام أولا فما أن همَّ وهو فى قمة الانفعال والتوتر بأن يتحدث حتى فوجئ بصديقه وكيل النائب العام وكان جالسًا إلى جواره يقول له هامسًا :

- إبرة . . وفتلة !

فالتفت إليه صديقى المحاسب متصورًا أنه يلفت نظره إلى شىء هام فى موضوع النزاع المعروض وسأله بعصبية : ماذا تقول ؟

فأجابه الآخر بنفس الهدوء والرزانة : إبرة . . وفتلة !

فلم يفهم شيئًا وكرر عليه التساؤل : ماذا تقول ؟

فأجاب وكيل النيابة فى ثبات بأنه فى حاجة إلى إبرة وفتلة ليخيط بهما زرارًا انفرط من قميصه خلال عملية فض الاشتباك بين المتنازعين، لأنه لا يستطيع الخروج إلى الشارع بقميص « مفركش » بعد انفراط أحد أزراره على هذا النحو .

فإذا بصديقى المحاسب الذى طالما حرص على المبالغة فى مجاملة وكيل النائب العام الشاب واحترامه ، ينفجر فيه فجأة بلا مراعاة لأى

اعتبارات ويقول له صائحًا بانفعال شديد . . وهل هذا وقته ؟ وهل هذا ما تساهم به فى فض هذا النزاع . . ألا تقول شيئًا ؟ ألا تفعل شيئًا ؟ . . ألا؟

وبهت وكيل النيابة الشاب وغضب من صديقى غضبًا هائلاً وانتفض واقفًا يريد الخروج ومغادرة الشقة . . فسددنا عليه الطريق ورجوناه ألا يستسلم للانفعال وأن يقدر لصديقنا الضغوط العصبية الشديدة الواقعة عليه فى هذه اللحظة ولكن هيهات . . فلقد أحس وكيل النائب العام بأن كرامته قد جرحت . . وظل عابسًا صامتًا طوال الجلسة ثم انصرف غاضبًا وفترت علاقته بصديقى بعد ذلك . .

وتأملت هذا الموقف بعد ذلك طويلاً . . وساءلت نفسى ألم يكن مطلب وكيل النيابة من صديقه عادلاً . . ومشروعًا . . وضروريًا ؛ لأنه لا يستطيع فعلاً أن يغادر المكان بمظهر غير لائق به وبكرامة منصبه ووجدت الجواب دائمًا أنه كان كذلك بالفعل !

إذن فلماذا ثار عليه صديقنا هذه الثورة الهائلة بل ولماذا استأنا نحن أيضًا من مطلبه هذا لحظتها ؟

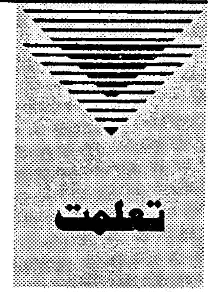
ووجدت الجواب فى عبارة شبيهة بعبارة ذلك الأديب الأمريكى وهى : أنه لا يكفى أن يكون مطلبك عادلاً ومشروعًا لكى تناله أو تحصل عليه . . وإنما ينبغى أيضًا أن تتخير الوقت المناسب الذى تتقدم فيه به إلى من يملك تحقيقه . . وإلا بدا طلبك له سخيفًا وسمجًا

ومرفوضًا ، وتلقيت الرد عليه . . كالصفعة ! والمطلب كان مشروعًا مائة بالمائة . . لكن التوقيت كان خاطئًا أيضًا مائة بالمائة . . فوقعت الأزمة بين الصديقين وفترت الصداقة مع أن النية كانت طيبة . . والمطالب كانت عادلة . . لكن النية الطيبة وحدها لا تكفى فلابد أيضًا من حسن الإدراك وحسن الفهم وحسن اختيار الوقت الملائم لكل مقال ، ولكل كلام . .

ومازلنا نتعلم كل يوم من دروس الحياة وتجاربها التى لا بداية لها ولا نهاية . . وشكرًا !



# تحت المظلة !




من ذكريات طفـولتى البعـيدة درسًا عـجيبًا هو أن ابتعد عن «المشاهير» وأن أتكتم أية صلة شخصية أو عائلية لى بهم إن وجدت ؟

تسألنى كيف ؟ ، . أجيبك بأنه هكذا قد علمتنى التجربة المؤلمة وأنا طفل صغير ! فلقد كان لمدينتى الصغيرة التى نشأت فيها فريق « شهير » لكرة القدم ، كان أبطاله نجومًا تلمع فى السماء فى مخيلتنا . . وننظر إليـهم نحن الصـغـار وكـأنـهم آلهـة تمشى على الأرض ! وقـد كـانوا بالضرورة يمشون فى الأرض ليسعوا على أرزاقهم لأن الكرة وقتها لم تكن تعرف المرتبات والمكافآت وهدايا المشجعين ، وكان الجميع هواة يعملون فى حرفهم المختلفة . . أو يدرسون فى مدارسهم ، فكان من بينهم بائع الفاكهة فى السوق و«الحداد» الذى يطرق الحديد الساخن

بالمطرقة ، ونجار الموبيليا . . وكهربائى المنازل . . والطالب بالمدرسة الثانوية . . أو بالمعهد الأزهرى الثانوى .

وكان الجميع يمضون النهار فى أعمالهم أو مدارسهم حتى إذا فرغوا منها توجهوا إلى ملعب المدينة الوحيد أو بالأحرى إلى «سوقها» المملوكة لشركة الأسواق الإنجليزية . . والتى تتحول كل يوم خميس إلى مكان لبيع وشراء الماشية . وفى الملعب يبدأ « الأبطال » فى الثالثة من بعد ظهر كل يوم تدريبهم اليومى ويستمر حتى مغيب الشمس وحلول الظلام ولم تكن هناك تدريبات لياقة بدنية . . ولا تدريب على خطط اللعب ولا غير ذلك من هذه « التقاليع » الكروية الحديثة ، وإنما كان التدريب عبارة عن مباراة حامية بين فريقين من اللاعبين تستمر ٣ ساعات على الأقل وتنتهى بمنافسة بين اللاعبين على التسديد على المرمى ، ونحن الأطفال نتحلق حول الملعب واقفين حيث لا توجد مقاعد ولا أماكن للجلوس ، نتابع « التدريب » باهتمام شديد ونرقب « الآلهة الأبطال » بانبهار ونستجدى منهم بعد نهاية اللعب كلمة أو إشارة تُظهر للآخرين معرفتهم الشخصية بأحدنا لكى يتيه بها فخرًا بين الرفاق !

ويستمر هذا البرنامج اليومى إلى أن يجىء موعد المباراة المنتظر كل أسبوعين أو ثلاثة . . ونترقب نحن هذا الموعد التاريخى بصبر نافد . . ونتلمس مقدماته ومؤشراته السعيدة بلهفة شديدة ، وكانت هذه المقدمات تبدأ دائمًا بفرقة من كنّاسى البلدية تقوم بكنس الملعب

وإزالة روث الماشية ومخلفات السوق منه ، ثم يجيء اثنان أو ثلاثة من « الأبطال » أنفسهم صباح يوم المباراة وهم يحملون جرادل مملوءة بالجير الأبيض ليقوموا بإعادة تخطيط الملعب ورسم دائرة السنتر ومنطقة الجزاء ، وتركيب الشباك فى المرميين العاريين .

ثم يجىء عمال الفراشة فيقيمون على جانب خط التماس فى منتصف الملعب سرادقًا أو مظلة كبيرة . . ويضعون المقاعد المؤجرة من محل الفراشة استعدادًا لاستقبال كبار شخصيات المدينة الذين سيشاهدون المباراة ، وكان فى مقدمتهم دائمًا مأمور الشرطة وضباطه وقاضى المدينة ووكلاء النيابة وطبيب المستشفى ومهندس البلدية وأعيان البلدة من كبار الملاك والتجار ، وهؤلاء سوف يشاهدون المباراة جلوسًا فوق المقاعد تحت المظلة التى تقيهم من لهب الشمس . . بل أنهم أيضًا - وياللحظ السعيد - سوف توزع عليهم زجاجات الكوكاكولا المجانية بين الشوطين مثلهم فى ذلك مثل لاعبى الفريقين الذين سيمضون فترة الراحة بين الشوطين فى أرض الملعب لأنه لا مكان آخر لذلك . . ولا غرف لخلع الملابس ولا حمامات للاعبين!

أما « العامة » من أمثالنا وباقى سكان المدينة فلسوف يشاهدون المباراة وقوفًا حول الملعب من كل الجوانب . . وبلا أدنى تعب أو كلل من الوقوف الطويل لساعتين أو ثلاث ولا مشكلة فى ذلك ، وإنما ستكون المشكلة الحقيقية هى مشكلة حكم المباراة الذى سيقاسى الأمرين طوال المباراة لإبعاد الجمهور إلى ما وراء خطوط التماس ،

وسيستعين فى ذلك بخيّالة الشرطة عدة مرات ، فيستجيب الجمهور كل مرة ويرجع للخلف بضع خطوات ثم لا يلبث أن يُنسيه حماسه حدود الملعب فيعود لاجتيازها ومشاهدة المباراة من داخل الملعب وليس من خارجه حتى ليحتاج اللاعب الذى يرمى رمية التماس إلى إرجاع المشجعين بضع خطوات للوراء كل مرة !

ولا بأس بذلك . . فالسيطرة على الجمهور المتحمس بجنون للكرة ولفريق بلده « الشهير » مستحيلة . . ونحن فى الملعب منذ الصباح الباكر وقد تعلّمت من درس التجربة أن أجرّ ورائى مقعداً من البيت إلى الملعب لأجلس عليه بين الواقفين كما يفعل بعض الأعيان الذين لا مكان لهم تحت المظلة . . واللحظة الحاسمة ستأتى حين يصل إلى الملعب موكب الأبطال الفاتحين وهم بملابس اللعب ومعهم الكرة والحكام ولاعبو الفريق الضيف وهو غالبًا من إحدى المدن المجاورة ، والنادى الرياضى الذى يلعب هؤلاء الأبطال له اسمه « نادى فاروق الرياضى » على اسم فاروق الأول ملك مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ومقره شقة أرضية من غرفتين ببيت قديم بالطرف الآخر من المدينة ، والنظام المتبع هو أن يخلع اللاعبون أصحاب الأرض والضيوف ملابسهم فيه ويرتدوا ملابس اللعب ثم يسيروا على الأقدام من مقر النادى إلى الملعب وسط «زفة» كبيرة من أطفال المدينة والمشجعين تجوب شوارع المدينة وأسواقها وسط تشجيع الباعة الجائلين وعمال المحال حتى تصل للملعب ، ولا سيارات أتوبيس مكيفة الهواء

تنقلهم إلى أرض المباراة ولا أى شىء آخر من هذه « الخزعبلات » الحديثة .

وبوصول الأبطال إلى أرض الملعب يرتفع حماس الجمهور الواقف إلى السماء ويبدأ التشجيع الجنونى للاعبين خلال التسخين . . ثم تبدأ المباراة ويقف مساعدا الحكم وسط الجمهور الواقف على الخط أو فى «أحضانهم» بمعنى أصح ، وهما دائمًا من أنصاف الآلهة لأنهم لاعبون قدامى ، أما « الراية » التى يشيران بها للحكم خلال المباراة فهى المنديل الأبيض الخاص بكل منهما وهما يشيران به لاحتساب الأخطاء عند اللزوم ويجففان به عرقهما باقى الوقت !

أما الحكم فهو غالبًا موظف الإسعاف بالمدينة وهو لاعب كرة سابق أيضًا وشديد العصبية ويخشاه الجميع .

ثم تبدأ المباراة ويبدأ معها حماس الجمهور فى التصاعد شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى حد الجنون .

وفى كل الأحوال فلا مفر من الفوز أو التعادل على الأقل أما الهزيمة فعار لا يمكن القبول به وقد تؤدى إلى كارثة أمنية يطيح خلالها خيالة الشرطة فى الجمهور الغاضب لتفريقه أو لإبعاده عن لاعبى الفريق الضيف حتى لا يفتك بأحدهم !

ومع كل ركلة قدم تتصاعد آهات الاستحسان وعبارات التشجيع من الجمهور الذواقة لفنون اللعب . . وحين يتصدى « برُهامى » نجم خط الدفاع لهجوم « الأعداء » ويفسده ويبعد الكرة بقوة عن منطقة الخطر تتعالى صيحات الجمهور بانفعال شديد : يا ولد . . يا دكر !

وحين يرتمى حارس المرمى «الحداد» محمد حسن على الكرة ويقتنصها من بين أقدام المهاجمين أسمع من يقسم بأن محمد حسن هذا راضع من ثدى أمه حتى الشبع وليس من أبناء جيل اللبن الصناعى الهش !

وحين يجرى الشيخ عبد العزيز بالكرة يثير عاصفة من الاستحسان والضحك فى نفس الوقت للتناقض الواضح بين بدانته وقصره وبين سرعته الفائقة فى الجرى ، فأسمع بين الجمهور من يقسم بأنه أسرع لاعب فى مصر وأنه لو كانت الأمور تجرى بالعدل لكان أبرز لاعبى منتخب مصر !

أما حين يتلقى نجم الهجوم نجار الموبليات يونس الكرة ويراوغ المدافعين أمام المرمى فقد كان حماس الجمهور يصل حقًا إلى حد الهوس واسمع من يقسم بالطلاق بأن يونس هذا لم تسحب ولاّده طفلاً مثله من بطون الأمهات ! . . وسواء نجح يونس فى التسجيل أم أخفق . . فهو موضع إعجاب الجميع . . ولابد أن ينال منهم عبارات الاستحسان والتمجيد !

لاعب واحد فقط فى الفريق كان لسوء حظه وحظى معه لا ينصفه الجمهور المتحمس أبدًا ولا يعفيه أبدًا من اللوم والسخط والسب واللعن طوال المباراة أجاد أم أخفق ، وكان هذا اللاعب هو سبب عقدتى الطفولية من « المشاهير » وقرابتهم ! فقد كان ابن عم أبى وكان

ضئيل الجسم ضعيف البنية ، ومن أولئك اللاعبين الذين لا يبذلون جهداً كبيراً فى الملعب ومع ذلك يتمسَّك بهم المدربون لارتفاع مهاراتهم الفنية ولقدرتهم على اقتناص هدف فى أية لحظة من المباراة يغفل فيها عنه الدفاع . وهذا النوع من اللاعبين يحظى غالبًا بسخط الجمهور وغضبه ، لأنه بسبب حرفيته ومهاراته العالية يصنع لنفسه فرصًا عديدة للتسجيل ، وبسبب ضعف لياقته فقد يضيِّعها تباعًا ، ولا ينجح فى التسجيل إلا بعد أن يكون قد نال من سباب الجمهور ما لا يمسح عنه « عاره » تصفيق المشجعين للهدف الذى أحرزه !

وحين شاهدت أول مباراة يشارك فيها قريبى هذا الذى كان يلعب دائمًا فى مركز الجناح الأيمن حرصت على انتهاز أول فرصة لإعلان قرابتى له للجمهور الواقف حولى مترقبًا ما سوف أناله من احترام وتكريم يليق بمن ينتسب بصلة القرابة لأحد هؤلاء « الآلهة » المحبوبين ، ولم ألحظ لغفلتى نظرات السخرية المكتومة فى عيون من تفاخرت أمامهم بقرابتى له . . أو لم أفهمها بمعنى أدق . . ثم لم تمض دقائق على المباراة حتى بدأ قريبى النجم يضيع فرص التسجيل واحدةً وراء الأخرى وبدأ الواقفون من حولى ينهالون عليه بأفحش السباب دون مراعاة لمشاعرى ولا لقرابتى لهذا « الإله » الذى تصورت أن الانتساب إليه شرف ما بعده شرف ، فشعرت بحرج شديد وخجل أشد وتبخر من نفسى إحساس الفخر والاعتزاز مع تصاعد السباب واللعنات ، وزاد من حرجى وخجلى أن الجمهور كان يسب هذا اللاعب بلقب الأسرة الذى أشاركه فيه وليس باسمه الأول . .

وتضرج وجهى بالاحمرار حين سمعت أحدهم يصيح بأعلى صوته : خربت بيتنا يا مطاوع الله يخرب بيتك يا بن . . فتلفتُّ حولى محاذراً أن يكون من بين الواقفين أحد من أصدقاء الطفولة حتى لا يرانى فى هذا الموقف « العصيب » ! ولسوء حظى فقد لازم النحس قريبى النجم طوال هذه المباراة بشكل عجيب فازدادت جرعة الشتائم والسباب الفاحش إلَى ما لا نهاية ولم أجد مفراً من الانسحاب فتسللت من المكان الذَى أجلس فيه ساحبًا ورائى مقعدى إلى موقع آخر من الملعب لا يعرف فيه أحد« سرى » هذا ولم يكن الحال فى الموقع الجديد بأحسن منه فى القديم ، فلقد تواصلت عبارات السباب الفاحش حتى ندمت على مجيئى للملعب من الأصل ، وتوهمت أن الواقفين حولى سيفتكون بى لو عرفوا صلتى العائلية بهذا اللاعب . . ودعوت الله من أعماقى أن يفك نحسه لكى أسترد بعض كرامتى الضائعة . واستجابت السماء لتوسلاتى الصامتة فنجح قرب نهاية المباراة فى تسجيل هدف الفوز وهاج الجمهور فرحًا وانفعالاً ورقصًا فتأهبت لأن أبوح للواقفين حولى بالسر العائلى الذى تكتمته عسى أن أسمع كلمة تشجيع أو استحسان ترد علىّ بعض كرامة أسرتى الجريحة ، فإذا بأحدهم يصيح بأعلى صوت : كفّارة يا مطاوع . . كفَّارة يا بن . . ! يقصد بذلك أنه قد كفّر بهذا الهدف عن بعض خطاياه خلال المباراة وليس عن كلها ، وأن هدفه الذى تصورتُ أنه سيعيد الود المفقود بينه وبين الجمهور لم يمح جرائمه السابقة ، فانكتمت فى موقعى وازددت انكماشًا وتخاذلاً ورجعت إلى بيتى أجرّ أذيال الخيبة وتجنبت الحديث

عن المباراة وما جرى فيها مع أصدقاء الشارع . . وتعجبت حين جاء هذا اللاعب بعد ذلك بأيام لزيارة أبى وبدا واثقًا من نفسه ، كيف لم يستشعر كل هذا السخط الجماهيرى عليه وكيف يرضى لنفسه «وعائلته» بهذه « المهانة » !

رغم حبى الشخصى لهذا القريب فقد تعلمت من « المحنة » بنفسية طفل صغير أن « مجابهة الجماعة ليست من الحكمة » كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته ، وتعلمت ألا أفخر بقرابة أى إنسان ما لم أتأكد من قبول الآخرين له ونيله رضاهم ، وظللت طوال طفولتى وصباى أشهد مباريات فريق الآلهة بغير أن أشير من بعيد أو قريب إلى صلتى العائلية بأحد نجومه رضى عنه الجمهور أم سخط . ثم هجرت مدينتى الصغيرة هذه وأنا دون السابعة عشرة لألتحق بجامعة القاهرة وتخرجت وعملت بالصحافة واستقرت حياتى بالعاصمة القاهرية فإذا بى أقرأ ذات يوم خبرًا عن عودة فنان شاب اسمه كرم مطاوع من بعثته الدراسية فى إيطاليا وبدئه نشاطه الفنى فى السينما والمسرح والتليفزيون فاستيقظت الذكريات القديمة فجأة فى أعماقى وقلت لنفسى : تانى ! قريب آخر من المشاهير يتعرض لرضا الجمهور على عمله أو سخطهم عليه وأسمع « بأذنى » عبارات الاستحسان أو اللعن له !

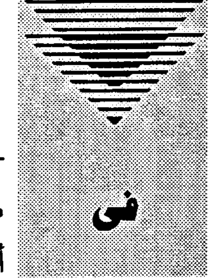
لكن خبرة السنين كانت قد علمتنى شيئًا ثمينًا آخر هو أن «الشخص العام» الذى يطرح عمله على الآخرين لابد أن يخضع لأحكامهم عليه وتقييمهم لعمله بغير أن يثير ذلك أية حساسيات

شخصية أو « عائلية » لأحد ، ولا غرابة فى ذلك لأنه قد ارتضى من البداية بخروجه من دائرة المغمورين إلي دائرة المعروفين أن يكون كل شىء فى عمله بل وحياته الشخصية أيضًا قابلاً للنقد أو الاستحسان ، فيصبح من حق الآخرين أن يعجبوا به أو يلعنوه دون أن تشعر أنت بالفخر الشخصى لإعجابهم ، ولا « بالعار العائلى » للعناتهم ولو كنت قد أدركت هذه الحقيقة فى طفولتى لما أفسدت على نفسى متعة مشاهدة مباريات فريق الآلهة بتأثرى بلعنات الجمهور لقريبى الجناح الأيمن المسكين رحمه الله ، ولا كنت قد كتمت قرابتى له على أصدقائى الصغار بضع سنين .

وأيّا كان السبب فى تخلصى من آثار هذه العقدة الطفولية ، فلقد اعتززت دائمًا بفن الفنان كرم مطاوع ابن عم أبى وإن كنت لم أكتب كلمة واحدة عنه أو عن أعماله الفنية التى تنال إعجابى دائمًا طوال ثلاثين سنة أو أكثر . . ربما استشعاراً للحرج الشخصى من أن أكتب عنه وهو قريبى فيتشكك البعض فى موضوعية ما أكتبه عنه وحيادة . . وربما تأثراً « بالعقدة » القديمة التى أورثنى إياها ابن عمه لاعب الكرة القديم رحمه الله . . الله أعلم !



# نقطة تحوُّل !



فى حياة كل إنسان منا لحظة أو لحظات قدرية غيّرت . من حيث لا يحتسب - مجرى حياته أو كان لها أبلغ الأثر فيما اتخذ من طريق بعد ذلك فى الحياة ، قد تكون هذه اللحظة موقفًا استفز فيه شرارة التحدى ، وقد تكون كلمة شاردة سمعها فوقعت من نفسه موقعًا أعمق كثيراً مما بدا للآخرين ، وقد تكون إنسانًا التقى به على غير انتظار فكان لهذا اللقاء الطارئ أبعد الأثر فى شخصيته وأفكاره . . ورؤيته للحياة ، فإذا توقف بعد سنوات طويلة ليراجع حياته ذات يوم ، استطاع أن يقول صادقًا عن تلك «اللحظة» : إنها كانت نقطة تحول أساسية فى حياته . وربما تساءل أيضًا : تُرى فى أى اتجاه كان يمكن أن يمضى طريقى فى الحياة لو لم أستمع إلى هذه العبارة الشاردة ، أو لم ألتق بهذا الإنسان . . أو لم يستفزنى ذلك الموقف ؟

ولأننى من هواة قراءة السير الذاتية للمفكرين والعلماء الناجحين فى كل مجالات الحياة ، وأجد فيها دائمًا ما أستفيد به فقد اعتدت - خلال قراءاتى لقصص حياة هؤلاء المشاهير - أن أتوقف دائمًا أمام نقطة التحول هذه فى حياتهم . . وأتأملها طويلاً متعجبًا من تصاريف القدر ، ومجددًا إيمانى الدائم بأن للأقدار ، دائمًا كلمتها العليا فى حياة الإنسان ، وأنه ليس للمرء إلا أن يعمل بإخلاص ويكافح بإصرار فى الحياة ، وعليه أن يدع بعد ذلك أمره لخالق الكون يصرفه كيف يشاء .

خذ مثلاً ما رواه الأديب والفيلسوف الراحل الدكتور زكى نجيب محمود عن حياته فى كتابه العذب « قصة نفس » لقد كان صبيًا ضعيف النظر يعانى أشد المعاناة من ضعف إبصاره ، ومع ذلك فهو يواصل دراسته الابتدائية بلا كلل . . وبلا تفوق أيضًا ، ثم حدث ذات يوم وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن جاء صديق لأبيه لزيارته ، فجلس الصديقان يتجاذبان أطراف الحديث فى شئون الحياة المختلفة ، والصبى الصغير يتحرك فى الجوار بحيث يسمع ما يقولان ، فإذا الصديق ينصح الأب نصيحة مخلصة بأن يكف عن تعليم ابنه هذا بالمدارس لأن ضعف إبصاره سوف يحرمه من فرصة التعيين ذات يوم فى وظائف الحكومة ، وهى هدف التعليم الوحيد فى رأيه ، فإذا لم يكن من سبيل إليها ذات يوم فما معنى العناء فى الدراسة . . وما معنى الإنفاق على تعليم هذا الفتى فى المدارس الحديثة ؟ . ولقد كانت وجهة نظر هذا الصديق « منطقية » من الناحية النظرية وكان من

غير المستبعد أن يستجيب لها الأب . . أو يسلم بها الفتى نفسه بعد قليل وهو يعانى ما يعانيه من ضعف النظر خلال دراسته ، لولا أن هذه النصيحة نفسها كانت هى نقطة التحوُّل الأساسية فى حياة الدكتور زكى نجيب محمود وقد كتب عنها وعن هذه « اللحظة » بعد خمسين عامًا أثرى خلالها الحياة الفكرية فى بلده والوطن العربى كله بالعديد من المؤلفات الأدبية والفلسفية فقال : « فإذا بهذه النصيحة تؤلمنى أشد الألم . . وبدلاً من أن تكون سببًا فى إحباطى وتثبيط عزيمتى إذا بها تصبح حافزًا لى على مضاعفة القراءة لكى أثير الغيظ فى نفس قائلها ، حتى أصبحت القراءة من حياتى بمثابة الروح من الجسد » وواصل الفتى دراسته بتفوق حتى تخرج فى الجامعة وأوفد فى بعثة إلى بريطانيا وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة وأصبح من أكبر وأشهر أساتذتها بالجامعات العربية .

وخذ أيضًا ملحمة كفاح أستاذة الأجيال الدكتورة عائشة عبد الرحمن مع التعليم وقد تعددت اللحظات القدرية فيها ، ابتداء من رفض أبيها الشيخ التحاقها بالمدرسة الأولية بدمياط ، حتى استعانت عليه والدتها بشيخه وإمامه فى التصوف الذى لا يرد له كلمة ، فقبل كارهًا التحاقها بالمدرسة بعد تجاوزها سن القبول ببضع سنوات . . إلى اصطحاب أمها لها من دمياط إلى المنصورة لكى تحاول إلحاقها بمدرسة المعلمات هناك ، فترفض المدرسة لتجاوزها أيضًا السن المقررة ، وبدلاً من أن ترجع الأم يائسة إلى مدينتها إذا بها تتجه إلى محل صائغ فى المنصورة تبيع فيه أسورتها الذهبية ثم تصطحب ابنتها

المنذورة للعلم والفقه والأدب بغير أن تدرى ، وتتوجه إلى القاهرة لتحاول إلحاقها بمدرسة حلوان . . إلى أداء بنت الشاطئ لامتحان الكفاءة سراً بغير علم أبيها من منازلهم فتجئ الأولى على القطر كله وبفارق ١٥٠ درجة عمن يليها فى الترتيب . . إلى استجابتها لنصيحة الممتحنين لها بالاتجاه إلى التعليم الحديث لكى تستطيع الالتحاق بالجامعة ذات يوم ، وكان ذلك يتطلب منها معرفة اللغة الإنجليزية التى لا تدرى عنها شيئًا ، فتجهد نفسها فى محاولة دراستها ، وتدخل امتحانها وهى تعتمد اعتمادًا أساسيًا فى ذلك على موضوع الإنشاء الذى حفظته عن ظهر قلب وكان عن كتاب « السندباد البحرى » ويبدأ الامتحان ، فإذا بها تنسى معنى كلمة « نسر » بالإنجليزية ، وهى كلمة تترد كثيراً فى الموضوع ، فتسلم باليأس من اجتياز الامتحان ، وتحقيق أمل الالتحاق بالجامعة ذات يوم ، فإذا عينُها تقع عرضًا على قلم الرصاص الذى تستعين به فى تسطير الإجابة فتجد عليه كلمة نسر باللغة الإنجليزية EAGLE لأنها علامته التجارية ، وإذا غيوم اليأس تنقشع فجأة فتعود لمواصلة الإجابة بحماس وابتهاج وتنجح فى الامتحان ، وتواصل طريق التعليم الحديث حتى نهايته ، ثم تكتب بعد ٦٠ عامًا أو تزيد عن هذه اللحظة القدرية فى حياتها ، فتقول : إنها لم تكن تعرف ماذا يدفعها إلى طريق الجامعة وهى الغريبة تمامًا على بيئتها الأزهرية لكنها - وبعد هذه المسيرة الطويلة فى الحياة - تعرف الآن جيداً ما الذى كان يدفعها إليها . . وهو أن تلتقى فيها بقدرها الذى ينتظرها فى رحاب الجامعة وهو أستاذها ومعلمها

وزوجـهـا ووالد أبنائـهـا الأسـتـاذ الإمـام أمين الخـولى أسـتـاذ الأدب العربى بكلية الآداب - رحمه الله - والذى حصلت - كما تقول هى - « برعايته على الماجستير والدكتوراه عن أبى العلاء المعرِّى ورسالة الغفـران ، وتعلمت عنه منهجه السـليم فى البحث والنظـر العلمى فى القرآن » .

ترى فى أى اتجاه آخر كانت ستمضى حياتها لو لم تقع عينها عرضا على كلمة « نسر » بالإنجليزية على مؤخرة قلم الرصاص الموضوع أمامهاعلى مائدة الامتحان ؟

خذ أيضًا قصة حياة الشاعر المعروف باسم « أبو همام » والأستاذ الجامعى بكلية دار العلوم الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم . لقد كان مقدرًا له أن يواصل طريق التعليم الأزهرى حتى نهايته ويصبح ذات يوم أستاذًا أو شيخًا لأحد المعاهد الدينية ، لكنه كان إلى جانب دراسته الأزهرية - يقرض الشعر ويهوى الأدب ، فقربه إليه أحد أساتذة المعهد النموذجى للأزهر الذى يدرس به وهو الأستاذ محمد خليفة التونسى وشجعه على كتابة الشعر ، وكان التونسى من مريدى الأستاذ العقاد ومن رواد ندوته الأسبوعية صباح كل جمعة ، فاصطحبه ذات يوم إلى ندوة العقاد .

وقدمه إليه وشجعه على أن يسمعه بعض أشعاره ، فتهيب الفتى أن ينشد شعره أمام العقاد ، ثم استجمع شجاعته فى النهاية وأنشده

إحدى قصائده فطرب لها العقاد وأثنى عليها ثم سأله عرضًا بطريقته المألوفة فى الكلام :

أين تدرس يا مولانا ؟

وأجابه الفتى بأنه يدرس بالمعهد النموذجى للأزهر تمهيداً للالتحاق بكلية الشريعة ، فإذا العقاد يقول له فى هدوء : أدخل دار العلوم يا مولانا !

وإذا هذه النصيحة العابرة تغير مجرى حياة هذا الشاب تغييراً جذريا فيحسم الصراع المحتدم فى نفسه بين ميله المكتوم لدراسة الأدب ، وبين توجهه الطبيعى لدراسة الفقه والشريعة ، فيقرر الالتحاق بدار العلوم بالفعل ، ويمضى سنواته الأولى بها منصرفًا إلى الشعر أكثر من انصرافه للدراسة وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى بلا تفوق ، إلى أن يجئ عامه الجامعى الأخير ، فيحثه أساتذته على الاجتهاد لكى يُعيّن معيداً بالكلية ، ويستجيب للنصيحة لكيلا يفارق بيئة دار العلوم التى وجد فيها نفسه ويتخرج متفوقًا ويعين معيداً بالكلية ويوفد فى بعثة إلى أسبانيا ويتعلم الفرنسية والأسبانية ويحصل على الدكتوراه فى الأدب المقارن ، وينظر إلى حياته الآن بعد ٤٠ عامًا أو أكثر من هذا اللقاء الأول مع العقاد فيجدها قد تغيرت من حال إلى حال ، ومن طريق إلى طريق آخر مخالف تمامًا لما كانت تنبئ به البدايات ، ويجد السر فى كل ذلك هو تلك اللحظة القدرية التى

أنطقت أستاذه العقاد بهذه الكلمات المقتضبة : أدخل دار العلوم يا مولانا !

أما الأديب المحقق والمؤرخ العظيم أحمد أمين الذى أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات القيمة وأشهرها سلسلة فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، فلقد جاءته هذه اللحظة القدرية التى غيّرت مسار حياته فى أحد مقاهى القاهرة ذات أصيل وهو يجالس أستاذه أحمد بك أمين ، وكان من كبار رجال التعليم فى زمانه ويحمل أيضًا نفس الاسم ! وكان « الشاب » أحمد أمين قد نشأ أزهريًا وتخرج فى مدرسة القضاء الشرعى وعمل معيدًا بها ، فكان يلقى على طلبته دروس علم الأخلاق معتمدًا فى ذلك على مذكرات ترجمها عن الإنجليزية أستاذه وعميد المدرسة عاطف بركات ، لأنه لا إلمام له بأية لغة أجنبية ، ثم حدث أن التقى بصديقه وأستاذه أحمد بك أمين ذلك اليوم فى أحد المقاهى فراحا يتسامران ، وأشار أحمد بك فى حديثه عرضًا إلى أنه قد عثر على كتاب باللغة الإنجليزية لمستشرق أمريكى اسمه « ماكدونالد » عن التاريخ الإسلامى ونظام الحكم فى الإسلام والفقه الإسلامى ، وأنه كتاب قيم ومنصف للإسلام ، فإذا هذا الحديث العارض يستثير مشاعر الشاب أحمد أمين ويجدد أزمته مع نفسه وهو يرى زملاءه من أساتذة العلوم الحديثة بمدرسة القضاء يستفيدون فى إعداد محاضراتهم بما يقرأون فى المراجع الإنجليزية والفرنسية فى حين لا يعرف هو إلا المراجع المترجمة وإذا هذه اللحظة يكون لها أبلغ الأثر فى حياته فيكتب عنها بعد أربعين

عامًا فى كتابه الممتع «حياتى» فيقول : فاستفزنى الموضوع وقلت لأحمد بك أمين : هل تستطيع أن تذهب معى الآن إلى المدرسة «برليتز» لأرتب دروسا لى فى الإنجليزية فقبل وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته وذهبنا إلى المدرسة ورتبنا دروسًا ثلاثة بمائة وخمسين قرشًا فى الشهر ، واشتريت الكتاب الأول وتولت تعليمى سيدة إنجليزية يظهر عليها أنها فقيرة الحال ، وبذلتُ فى ذلك مجهودًا شاقًا فكنت أقرأ فى البيت وأحفظ فى الطريق وأذاكر إذا كنت مراقبًا فى الامتحان ، أو مشرفًا على حصة ألعاب رياضية ثم وُفِّقت بعد ذلك إلى سيدة إنجليزية أخرى كان لها أعظم الأثر فى نفسى وكانت مس « بور » فى الخامسة والخمسين من عمرها ومثقفة وفنانة وتوثقت الصلة بيننا فكأننى كنت من أسرتها ولم تكن تعنى بى من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب ، بل تشرف أيضًا على سلوكى وأخلاقى ، وقد لازمتها أربع سنوات استفدت خلالها كثيرًا من عقلها وفنها ، ولكننى لا أظن أننى استفدت كثيرًا من تكرارها على مسمعى أن أتذكر دائمًا أننى شاب !

فماذا كنت لو لم أجتز هذه المرحلة ؟ لقد كنت ذا عين واحدة «يقصد ثقافة عربية واحدة» فأصبحت ذا عينين ، عربية وأوروبية ، وكنت أعيش فى الماضى فصرت أعيش فى الماضى والحاضر ، فأنا مدين فى إنتاجى الضعيف فى الترجمة والتأليف والكتابة لهذه المرحلة بالذات بعد مراحلى الأولى .

ولقد كـانت الشـرارة الأولى لهـذه المرحلة فى حيـاته ومـا تلاها من مراحل بلغ خلالها كرسى الأستاذية بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، ثم كرسى العمـادة بنفس الكلية ومنصب مدير إدارة الثقافة بالجامعة العـربيـة فضـلاً عـمـا أصبح له من شأن أدبى وفكرى لا يقـارن به أى منصب . كـانت الشـرارة الأولى فى كل ذلك هى جلسـة المقـهى تلك وحديث أستاذه العارض فيها عن كتاب ذلك المستشرق الأمريكى !

وشبيه بذلك أيضًا ما رواه عميد الأدب العربى طه حسين فى رائعته « الأيام » حين بدأ يتحول عن الأزهر يائسًا من نيل شهادة العالمية وراح يختلف إلى الجامعة المصرية القديمة ويستمع إلى محاضراتها كمستمع حر ، فلقد كـان يحتاج دائمًا إلى من يصطحبه إلى الجامعة ، وكـان حرسها يرفض دخول غلامه معه فيتسابق زملاؤه إلى أن يأخذوا بيده إلى قاعة المحاضرات ، وكـان أكثرهم حرصًا على ذلك صديقًا أزهريًا له . . فأخطأ قيادته ذات مرة إلى قاعة المحاضرات الصحيحة ، ودخل به خطأ محاضرة عن الأدب الفرنسى باللغة الفرنسية ولم يكن الاثنان يعرفان منها حرفًا واحدًا ، فوقع الحديث من نفسهما موقعا غريبًا ولم تع ذاكرتهما سوى كلمة واحدة ترددت كثيراً فى المحاضرة هى كلمة «لافونتين» « شاعر رومانسى فرنسى كبير » فراحا يترقبان انتهاء المحاضرة على أحر من الجمر ثم انطلقا خارجين منها بعد انتهائها وهما يتندران على حالهما ويسميان قاعة المحاضرة تلك باسم سجن «لافونتين» لأنهما سجنا فيه بلا ذنب ساعتين كاملتين ، وكانت هذه المحاضرة هى آخر عهد هذا الصديق بمحاضرات الجامعة المصرية ،

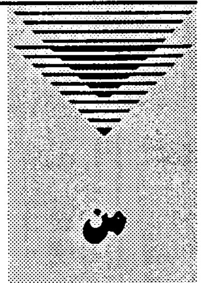
فانصرف عنها يائسًا ، أما طه حسين فكان له شأن آخر فلقد قرر فى تلك اللحظة التى غادر فيها القاعة ألا يرضى بهذا السجن مرة أخرى وأن يتعلم الفرنسية حتى يفهم ما يقال بها ، وبحث لنفسه عن مدرس يعلمه مبادئها الأولية ثم واصل الطريق إلى نهايته بعد ذلك حتى حصل على الدكتوراة من الجامعة المصرية ، ثم أوفد إلى جامعة «السربون» ليحصل منها على الدكتوراه أيضًا ويلتقى فى العاصمة الفرنسية بقدره الذى كان ينتظره هناك وقابل الفتاة الفرنسية «سوزان» التى قدر له أن تشاركه حياته حتى اللحظة الأخيرة وأن تشهد صعود نجمه إلى السماوات العلا فى عالم الأدب والفكر والسياسة . . وكانت شرارة البداية أيضًا فى هذا الطريق الطويل هى خطأ الصديق فى تحرى قاعة المحاضرات الصحيحة ودخوله سجن لافونتين ، فكان لهذا الخطأ الباهر أجمل النتائج فى حياة طه حسين وتاريخ الأدب الحديث على السواء !

ولا ينتهى الحديث عن مثل هذه اللحظات القدرية والمصيرية فى حديث الإنسان .

فابحث أنت أيضًا صديقى عن هذه اللحظة التى سوف يتغير عندها مجرى حياتك وترقبها فى وعى ويقظة لكيلا تفلت منك ولكى تحقق بها ومنها أفضل النتائج وأكثرها خيراً وفائدة لك . . وللحياة معًا .



# الأستاذ ميكارت !



من بين ذكريات طفولتى البعيدة تقفز صورة هذا الرجل وتتراءى لى فى مخيلتى فى بعض الأحيان ! أما الرجل فقد كان حين سمعت به ورأيته لأول مرة فى العشرينات من عمره . وقد عرفت من أمره أنه فشل فى دراسته فشلاً ذريعًا وحار أهلُه معه ، فلقد بلغ سن الشباب ولم يحصل على أية شهادة ترشحه لأية وظيفة ، ولم يتعلم حرفة تضمن له عملاً ، وحتى لو كان قد تعلم حرفة فهيهات أن يقبل بالعمل حرفيًا ، وهو من يعتبر نفسه « أفنديًا » رغم فشله الدراسى ، ومن «ذوى الأملاك» مع أن الأسرة كلها لم يبق لها من موارد العيش سوى قطعة أرض زراعية صغيرة لا ترى بالعين المجردة ولا تفى باحتياجاتها الأساسية ، ولولا البيت القديم الصغير الذى ورثته الأسرة وتقيم به ، لانكشف المستور وهتكت الأستار التى تحميها عن أنظار

الآخرين ، وقد ساهم تعثره الدراسى عامًا بعد آخر وتردى أحوال الأسرة الاقتصادية مع تقدم زملائه السابقين فى طريقهم الدراسى حتى بلغوا المرحلة الجامعية ، فى تعقيد شخصيته إلى أقصى حد ، فأصبح شديد الحساسية لأية مقارنة بينه وبين غيره من الناجحين ، وشديد التحفز لأية كلمة أو إشارة من هؤلاء الزملاء السابقين يتشمم فيها رائحة الاعتزاز بتفوقهم الدراسى أو المعايرة له بالفشل ، حتى ثقلت صحبته عليهم بعد طول صبر عليه .

ولولا تخوفهم من تفسير ابتعادهم عنه بأنه لم يعد جديراً بصحبتهم بعد أن أصبحوا طلبة جامعيين ، لما اقترب منه أحدأو تحمله ، ثم أخطأ أحدهم وكان قد التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة ، وحيّاه حين رجع فى إجازة الصيف مداعبًا :

أهلا يا أستاذ ديكارت !

فاعتبر تشبيهه بالفيلسوف الفرنسى إهانة كبرى له . . وإيماءة إجرامية من زميله لتذكيره بأنه يدرس الفلسفة فانفعل انفعالا جنونيًا وانهال عليه سبًا ولعنًا وتحقيراً ، رغم محاولات زميله الاعتذار وتأكيد حسن نيته له . . وتكررت مواقف مشابهة لذلك بينه وبين زملاء آخرين حتى أصبحت صحبته عبئًا نفسيًا لا يطيقونه ، وانصرف عنه بعضهم آسفين على ما تدهور إليه من حساسية مفرطة . . وعدوانية غير مفهومة تجاهم ، فقابل هو ذلك باعتزال الجميع معلنًا أنه

لم تعد تليق به صحبة هؤلاء التلاميذ المفاعيص ، وهو رجل ناضج من « ذوى الأملاك » خليق ألا يصاحب إلا الرجال من كبار التجار والمحامين والأطباء وموظفى الحكومة ! وتعويضًا لما يشعر به من نقص وضآلة الشأن ربى شاربًا غليظًا اكتملت له به مع نظرة الغطرسة والترفع التى اكتسبها هيئة رجل خطير ! وأصبح وكأن لا عمل له فى الحياة سوى تأكيد أهميته وخطورة شأنه فراح يمشى فى الطريق بوقار مفتعل وهو يحمل صحيفة الأمس أو صحيفة الأسبوع الماضى ؛ لأنه لا يقدر على شراء الصحيفة كل يوم ، ويدخل كل مأتم يصادفه ليقدم العزاء لأهله ولو لم يكن يعرفهم ، وكل فرح يقام بالمدينة ليقدم التهنئة لأصحابه فيجلس بين المدعوين فى كبرياء ويتحدث عن « مشاغله » العديدة والمجهود الكبير الذى يبذله فى الإشراف على أرض الأسرة الزراعية . . أو «العزبة» كما كان يقول عنها . . إلخ ثم ينصرف بعد قليل معتذراً « بضيق الوقت » ، ويخرج فى جلال تشيعه الابتسامات السَّاخرة من وراء ظهره ؛ لأن الجميع يعرفون أن « العزبة » ليست سوى فتات قطعة ميكروسكوبية من الأرض . . وأنه لا عمل له ولا دور فى الحياة .

وقد استنام إلى حياة الفراغ هذه بعض الوقت ، وكلما طال عهده بها ازداد تعقدًا . . وتعاظمًا . . وحساسية فى التعامل مع الجميع ، حتى خشيت عليه أمه الجنون ، وراحت تلح عليه بضرورة أن يعمل أى عمل ، لينشغل به ، ويسهم فى تحسين أحوال الأسرة المتردية ،

وكلما استعانت عليه بأحد فى هذا الشأن رد عليه فى تكبرٍ : وأين هو العمل الذى يليق برجل مثلى ؟ هل أعمل عاملاً فى محل . أو فى ورشة ؟

وأخيراً جاء الحل الموفق السعيد وهو أن يعمل تاجراً فى تجارته الخاصة فلا يكون لأحد سلطان عليه سواه ، فإذا كانت الظروف لا تسمح باستئجار محل ملائم فى شارع رئيسى . . إذن فليُهدم حائط الغرفة الأمامية بالدور الأرضى من بيت الأسرة لتصبح محلاً مناسبًا له . . وأما السلع وتكاليف إعداد المحل ، فلسوف تتكفل بها الأم بعد بيع آخر قطعة من حليِّها الذهبية . . فلا يبقى بعد ذلك سوى أن يوظف هو عبقريته فى هذه التجارة ويصنع نجاحه بنفسه ، ويشعر بأهميته وجدارته . .

وتم ذلك بالفعل ، وخلال وقت قصير كان قد تم إعداد المحل وشراء السلع البسيطة التى تكون رأس مال تجارته ، ولم تكن قيمتها تزيد وقتها على ستين أو سبعين جنيهًا على الأكثر ولا تتعدى بعض علب البسكويت الشعبى والحلوى الرخيصة والسجائر وبعض الخردوات ، ورغم ذلك فلقد حرص على أن يميّز محل تجارته بشيئين « يتناسبان » مع وضعه المميز فى الحياة ومستواه « الثقافى » المختلف عن مستوى أمثاله من أصحاب الحوانيت الصغيرة . أما الشىء الأول فهو مكتب أثرى ضخم مطعَّم بالصدف ويصلح رغم رثاثته لأن يكون مكتبًا لرئيس محكمة النقض لعلَّه كان مملوكًا لجده الأزهرى ، وقد

وضعه فى صدر المحل فبدا غريبًا وسط هذه البضائع التافهة . . ووضع عليه لوحة تحمل هذه العبارة الشهيرة : اتق شر من أحسنت إليه !

وأما الشىء الثانى فهو صندوق بريد خاص فى حجم صناديق البريد العمومية ، ولا أعرف كيف حصل عليه أو كيف صنعه ، وقد علقه على الحائط إلى جوار باب المحل وكتب عليه بفرشاة البوية عبارة عجيبة هى : شكاوى الجمهور ! كأن الرجل حاكم ديمقراطى يحكم هذه المدينة الصغيرة ويحل مشاكل جماهيرها ويسمع لآرائهم ! وهيهات أن يجرؤ أحد على سؤاله عن معنى هذا الصندوق أو ضرورته ، ولو تجرَّأ أحد وفعل ذلك لأجابه برزانة تليق برجل خطير مثله ، وكما شرح هو بعد ذلك ، بأنه ما دام قد اختار العمل بالتجارة ، فلسوف يتعامل مع «الجمهور» كل يوم ، وسيكون لهذا الجمهور بعض الشكاوى بالضرورة من سوء الخدمة أو من نوعية بعض السلع أو من طريقة التعامل إلخ . . واحترامًا منه لآراء الجمهور وملاحظاته فقد خصص هذا الصندوق لتلقى هذه الآراء والملاحظات ودراستها بعناية والرد عليها بما يحقق مطالب الجمهور ويرضى الجميع ! ولا غرابة فى ذلك لأن هذا هو الفارق بينه وبين التاجر الجاهل الأمى الذى لم يعمّر فى المدارس مثله ١٥ عامًا أو يزيد !

ولأن البلاغة هى ملاءمة الحال لما يقال ، فلقد بدا صندوق شكاوى الجمهور هذا فى حينه قمة فى التعبير «البليغ» عن جنون العظمة

والانفصال عن الواقع ، اللذين تملّكا هذا الشاب البائس بالرغم من سلامة المبدأ نفسه كمبدأ هام من مبادئ علم التسويق والتجارة إذ إن من سيتعاملون معه لن يعدوا أن يكونوا من الأطفال الذين يشترون منه بالقرش ونصف القرش ، أو من السيدات الأميّات اللاتى سيشترين منه بكرة خيط بقرشين ؟ فماذا يدعو هؤلاء - حتى لو استطاعوا - لأن يسطروا ملاحظاتهم وشكاواهم له على الورق ويلقوا بها فى الصندوق ، وصاحب المحل يجلس أمامهم لا يجد ما يفعله معظم النهار، ويستطيعون مواجهته شفويًا بما يريدون من ملاحظات !

لقد كان هذا الصندوق العجيب هو قمة الانفصال حقًا عن الواقع ، والإحساس بمركب النقص ومحاولة تعويضه بادعاء الأهمية ، والمسؤلية أمام «جماهير» البونبون والعسلية الغفيرة !

وبالطبع فلقد ظل الصندوق خاويًا من يوم تركيبه إلى مالا نهاية كما ظل المحل نفسه - ولا عجب فى ذلك وعقلية صاحبه هكذا - كاسدًا لا يكاد يربح شيئًا . . ولا تحمل رفوفه من السلع إلا أقل القليل . . كما ظل «الأستاذ ديكارت» قابعًا وراء المكتب الفخم معظم ساعات اليوم بلا عمل يشغله سوى قراءة الصحيفة القديمة ، أو التظاهر بمراجعة حسابات المحل باهتمام شديد فى دفتر أسود كبير لا يتناسب مع وضع المحل البائس كلما مرّ به أحد من معارفه أو زملائه القدامى . وراح العمر يتقدم به - وحاله يتدهور من سيئ إلى أسوأ وقد ازداد مع الأيام تعقيدًا وتكبُّرا حتى أصبح ينظر للجميع

فى ازدراء وتعال غير مفهوم . . ولا يتناسب أبدًا مع منظره المثير للرثاء وهو وسط المحلّ الخالى وخيوط العنكبوت تتدلى حوله من السقف والرفوف كصورة مجسمة للخيبة والعجز عن فهم حقائق الواقع والتواؤم معها . . وكصورة مثيرة للتأمل أيضًا لجنون العظمة الذى ينطوى دائمًا فى نفس الوقت على نقيضه وهو جنون الشعور بالاضطهاد لأنه ببساطة لو لم تكن « عظيمًا » لما اضطهدك الآخرون كما يتوهم دائمًا المصابون بهذا الداء .

أما الصندوق فلقد رأيته فى مكانه بجوار باب المحل آخر مرة منذ ثلاثين عامًا وفتحته مسدودة بالتراب والطين الذى تخلف عن المطر عاما بعد عام .

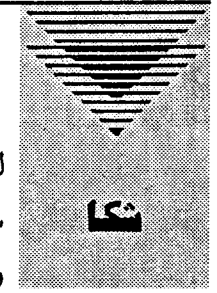
وأما الرجل نفسه فلا أدرى ماذا صنعت به الأيام بعد ذلك وهل واصل الاستسلام لجنون العظمة والكبر حتى النهاية أم علمته الأيام ما لم يكن يعلم ، فعرف أن الكبر قرين الكفر لأنه اجتراء على مقام الله سبحانه وتعالى . . « المتكبر » الوحيد الذى يحق له حقًا وصدقًا أن يتكبر ، ورغم ذلك فهو . . جل فى علاه . . الرءوف الرحيم بخلقه . أما باقى البشر ومهما بلغ بهم شأنهم ، فهم أفراد ضعاف تهزمهم بعوضة حقيرة . . وفيروس تافه لا يرى تحت الميكروسكوب المكبِّر ويبكون كالأطفال أمام الألم ، ولا يملك أحدُهم لنفسه شيئًا ، فإن كان لبعضهم ما يعتزُّون به من مزايا « فمن مدحك فإنما قد مدح مواهب الله عندك ، فالشكر لمن منحك وليس

لمن مدحك » ، كما قال صادقًا ابن عطاء الله السكندرى « فى الحكم العطائية » .

وأما لماذا أتذكر هذا الرجل وتقفز صورته إلى مخيلتى ، فى بعض الأحيان ؛ فلأنه صاحب فضل شخصى علىّ من حيث لا يدرى ، لأننى قد رأيت فيه نموذجًا مجسمًا لما يفعله التكبر والغرور والانفصال عن الواقع بالإنسان ، وكيف يحيله إلى سخرية للآخرين فى نفس الوقت الذى يتوهم فيه أنه موضع احترامهم . . كما أتذكره أيضًا لأننى قد أرى فى الحياة نماذج مكررة له تتعامل مع الدنيا بنفس منطقه . . وأوهامه . . وغروره . فاسترجع على الفور صورة الأستاذ ديكارت ، ومشهد صندوق بريده الذى ظل ينتظر شكاوى الجمهور بلا طائل سنوات طوال ، وابتسم للذكرى . . وأردد وراء شاعر الإنجليزية الأعظم شكسبير كلمته الحكيمة : إن الغرور هو نعمة الله لأصحاب النفوس الضعيفة ! وأقول لنفسى إن هذا صحيح تمامًا لأنه يعوضهم عن ضعف نفوسهم . . وفقر معنوياتهم وفضائلهم . . فيمضون فى الحياة وهم يتوهمون أنهم «كائنات جليلة الشأن» لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلا ، وهم فى الحقيقة أشخاص تافهون . . وبؤساء معنويًا ونفسيًا وحالهم يصعب على كل صاحب قلب حكيم !



# لا تنس وضع الحذاء !



شكا لى صديق من بعض تصرفات ابنه الشاب التى تثير سخطه عليه وأعيته الحيل معه لكى يقلع عنها !

وأصغيت باهتمام شديد لما ينكره صديقى على ابنه من سلوكيات وعادات خاطئة ، فروى لى عنه أنه شاب «مستهتر» و«غير منظم» . . و«غريب الأطوار» مما يثير قلقه ومخاوفه بشأن مستقبله ونجاحه فى الحياة ، أما علامات استهتاره وغرابة أطواره كما حكاها لى الأب الصديق فهى أنه لا يلتزم أبداً «باللائحة الداخلية» غير المكتوبة لنظام الحياة داخل البيت فى حين يلتزم بها الأبوان وشقيقته الصغرى وشقيقه الطفل ، وعلى حين يرجع الجميع من أعمالهم أو مدارسهم فيخلعون أحذيتهم بجوار باب الشقة ويضعونها فى الدولاب المخصص لذلك ، فإن فتانا الشاب يخلع حذاءه فى أى مكان ، ويلقى بجوربه عليه ، وقد بح صوت أبيه وأمه

من رجـائه كل يوم أن يضع حـذاءه فى دولاب الأحـذية ! ، وعلى عكس ما تفعل أخته أو أخوه ، فإنه يخلع ملابسه ويلقيها أيضًا فى أى مكان حيثما اتفق مع أن الشماعة إلى جواره ويستطيع بغير عناء أن يعلق ملابسه عليها ليحافظ على النظام فى بيته ، أما فى الصباح وحين ينهض من نومه فإنه يغسل أسنانه بالفرشاة ، ولا يمكن أبدًا مهما كررت عليه أمه وأبوه الرجاء أن يعيد غطاء أنبوبة معجون الأسنان إلى مكانه أبدًا مع أنه يعرف أن تركها مفتوحة يؤدى إلى جفاف المعجون وتلفه ! كما أنه يرجع من كليته متلهفًا على تناول طعام الغداء ، وبدلاً من أن يشارك الأسرة غداءها حول المائدة كما يفعل الأبناء «الصالحون» فإنه يملأ طبقه مما يحتاج إليه من طعام ، ثم يجلس على الأرض ويتناوله بتلذذ شديد عازفًا عن الجلوس إلى المائدة مع باقى أفراد الأسرة ومبررًا ذلك بأنه يستريح هكذا . . ويفعل نفس الشىء أيضًا حين يستذكر دروسه ، فلا يجلس إلى المكتب المخصص له وإنما يذاكر دروسه فى أى مكان من الشقة جالسًا على الأرض أو فوق السرير ، أو مضطجعا على « الفوتيل » وكلما طالبته أمه بالجلوس إلى المكتب لأن هذا أفضل من الناحية الصحية أجابها بأنه «سعيد هكذا» .

ومع أنه متوسِّط القامة أو يميل إلى القصر ، إلا أنه يرفض نصيحة أبويه بتجنب ارتداء الملابس الواسعة المتهدِّلة عليه حتى لا يبدو فيها مثل « فطوطة » الذى يرتدى ملابس أخيه الأكبر ، ويفضل دائما الملابس المتهدلة ؛ لأنها مريحة ولأنه أيضًا « يستريح هكذا » ولا يرى بأسا فى أن تبدو ملابسه واسعة بغض النظر عن اتفاقها مع مودة

الملابس الشبابية أو تعارضها معها ، كما أنه يكره ارتداء البدلة الكاملة مع أن لديه بدلتين اشتراهما أبوه له لحضور المناسبات العائلية وأفراح الأسرة ، ويكره ارتداء ربطة العنق ، كراهية التحريم وفشلت معه محاولات أبويه لإقناعه بارتدائها فى مناسبة مهمة كفرح أحد من الأهل كما أنه متقلِّب الهوى والمزاج أيضًا . . ففى كل سنة له هواية جديدة تستغرقه وينشغل بها حتى يظن الأهل أنها قد أصبحت هوايته الأساسية ، فإذا به يزهدها فى الصيف التالى وينبهر بهواية جديدة ونشاط آخر ، وبعض هواياته غريبة وغير مألوفة ، فأحيانًا يجمع أغطية زجاجات المياه الغازية ، وأحيانًا يجمع علب السجائر الفارغة مع أنه لا يدخن أبدًا والحمد لله . . وأحيانًا يجمع أغلفة قطع الشيكولاته والبسكويت ويصنع منها أشكالاً مختلفة وهكذا .

وسألنى الأب الصديق وسحب القلق تتجمع داخله : تُرى هل تنصحى بعرضه على طبيب نفسى ليساعدنا فى توجيهه إلى ما فيه خيره وصلاح أمره فابتسمت وأنا أستعيد فى مخيِّلتى صورة هذا الابن الشاب الذى التقيت به أكثر من مرة وترك فى نفسى انطباعًا طيبًا من اللحظة الأولى ثم سألت الأب المهموم :

هل تنكر على ابنك هذا شيئًا فى دينه وخلقه أو التزامه بدراسته ورؤيته للحياة ؟

وفوجئ الأب بسؤالى للحظات ، وبدا لى كما لو كان يراجع فى مخيلته «حساب» ابنه مع الحياة قبل أن يجيبنى ، ثم قال لى مترددًا ،

إنه لا ينكر عليه شيئًا من ذلك فى الحقيقة ، فالحق أنه على الناحية الأخرى من كل هذه « الأطوار الغريبة » شاب متدين تدينًا صحيحًا باعتدال وسماحة ويؤدى صلواته ويصوم شهره ، وينفر من الحرام بكل أشكاله وأولها الكذب والخداع وإيذاء الغير ، كما أنه دمث الطبع ورضىُّ النفس ويتعامل مع الآخرينَ بحب واحترام ، وينطوى على قلب عطوف تجاه أخويه الأصغر منه وأبيه وأمه وأهله والضعفاء من الناس بصفة عامة ، كما أنه يحترم من هو أكبر منه سنًا ولا يناديه باسمه إلا مسبوقًا بكلمة « يا عم فلان » ولو كان أقل الناس شأنًا فهو لا يعرف الكبر والاستعلاء على من هم أدنى منه درجة اجتماعيًا ، ولا يشعر - فى الوقت نفسه - بالنقص تجاه من هم أكثر منه ثراء ومكانة اجتماعية ولا يعرف الحقد عليهم أو على أحد ، وإنما على العكس من ذلك يرى فى أبيه أعظم الرجال مهما كانت قدراته المادية ، وفى أمه أفضل النساء مهما كان وضعها الاجتماعى ، وينجذب تلقائيًا وبخيط سحرى خفى إلى أهل أبيه وأمه ويحبهم من قلبه ، كما أن رؤيته للحياة فى إجمالها سليمة فهو لا يرى غاية الدنياالأولى فى الثراء الفاحش والملابس الغالية والسيارة الفخمة ، وإنما يراها فى السعادة والحياة بين من يحبهم ويحبونه مهما كانت الأوضاع المادية والاجتماعية لهم ، كما أنه أيضًا « كريم » بما فى يده ، و« شهم » ولا يتأخر عن أداء واجب مجاملة لأحد من الأهل أو الأصدقاء ولا عن زيارة مريض أو الوقوف مع صديق له فى محنة طارئة ، وحين يكون «ميسورًا» فى أول الشهر فإنه لا يبخل على أخويه بإعانة

صغيـرة أو سلفـة لا ترد . . أو هدية بسيطة ، وحين ينفد مصروفه قبل نهاية الشهر فإنه لا يطلب المزيد ولا يتذمر أو يتسخط . . وإنما يحبس نفسه فى البيت فقط ويستغنى عن نزهته الخارجية إلى أن «يقبض» مصروفه ويرجع لممارسة نظام حياته المعتاد !

ونظرت إلى محدِّثى الذى نسى هواجسه ومخاوفه السابقة فى غمار حديثه عن سمات ابنه الطيِّب المستقيم ، واتسعت ابتسامتى أكثر وأكثر وأنا أقول له لائمًا : وماذا تريد فى ابنك الشاب هذا من فضائل جليلة ، ومثل عليا عائلية وإنسانية وأخلاقية أكثر من هذا ؟ وماذا تطلب منه لكى يحقق لك الصورة المثلى لشاب فى مثل سنه وظروفه وعصره ؟ إنه شاب طيب القلب ، رضيّ الخلق ، مستقيم الطبع سليم الوجدان يحيا فى طاعة الله وضميره الأخلاقى والدينى حيّ ومتيقظ ، وإحساسه العائلى قوى وحار ورؤيته للحياة صحيحة وسليمة وحكيمة ؟ أما بعض العادات الشخصية . . والسمات التى تنكرها عليه ، فحتى لو كانت غير صحيّة أو مخالفة للائحة الحياة داخل الأسرة ، فإنها فى النهاية هنّات هامشية ولا تمس الجوهر الأصيل فيه ، ولا ينبغى لها أبدًا أن تنقص من جدارته بفخرك واعتزازك به ، ، فالكمال لله وحده يا سيدى ، وليس فى الحياة كلها إنسان «كامل الأوصاف» تمامًا إلا فى شعر الشعراء وغزل المحبين ، ولابد دائمًا من القبول ببعض الاختلاف فى طبائع الشباب وعاداتهم الشخصية لأنهم مختلفون أصلاً عنَّا ولا يمكن لهم أن يكرروا صورتنا بكل تفاصيلها فى الحياة ، ولا هو من العدل أن نطلب منهم ذلك ،

وبالتالى فلابد أن تختلف بعض عاداتهم وسماتهم وطباعهم ، عن طباعنا وعاداتنا الشخصية ،وفى هذا الاختلاف نفسه سر تجدد الحياة وتدفق المياه الجديدة فى نهرها ، وعنصر أصيل من عناصر تفردهم وتميز شخصياتهم عن شخصياتنا ، فالبشر ليسوا كقوالب الطوب المتماثلة فى كل شىء . ولابد دائمًا من أن تختلف بعض عادات الكبار وطبائعهم عن بعض عادات الشباب وطبائعهم وأسلوبهم فى الحياة ، ومادام هذا الاختلاف فيما لا يمس جوهر الالتزام الدينى والخلقى والإحساس بالواجب فلا ضير فيه ولا ملام ، إذ ماذا يجدى الإنسان لو كان ابنه الشاب منحرفًا أو مستهترًا فى قيمه الدينية والأخلاقية أو فاشلاً مثلا فى دراسته ، وكان على الناحية الأخرى ملتزمًا تمام الالتزام بنظام الحياة داخل الأسرة ، فيخلع ملابسه ويعلقها على الشماعة ، ويضع حذاءه فى المكان المخصص له ، ويغلق أنبوبة معجون الأسنان بعد استعمالها ؟

وماذا يعوض الإنسان عن مثل هذا النقص الأخلاقى لو كانت كل عاداته بعد ذلك متوافقة مع النظام فى البيت ومريحة للأهل والأسرة ؟

أما هذه العادات التى تراها «غريبة الأطوار» فإن تمسك بعض الشباب بها رغم انتقاد الأهل الدائم لها قد يعبر فى أحد وجوهه عن رد فعل عكسى لخطأ بعض الآباء والأمهات فى انتقاد كل ما يصدر عنهم من سلوكيات وتصرفات ولو كانت هيِّنة وبسيطة كهذه التصرفات ، إلى جانب أن هناك تأثيرًا لاشك فيه لنزعة جبر التكرار

التى قد تسيطر على العقل البشرى أحيانًا وتدفع الإنسان لتكرار بعض ما ينكره عليه الآخرون أو بعض ما لا يرضى هو نفسه عنه ويود لو يتخلَّص منه ،لكن الانتقاد الدائم لا يعينه على ذلك ، وإنما يدفعه من حيث لا يدرى إلى تكراره . . أو نسيان تعليمات الأهل بشأنه كنوع من احتجاج العقل الباطن على جعله هدفًا دائمًا للانتقاد من جانب الأهل بحق وبغير حق .

إن بعض الشباب فى الخارج يعبرٌون عن نزعة الاحتجاج هذه بتعمد الإغراب فى مظهرهم وأشكالهم ووجوههم ، فيحلقون رءوسهم بالموسى أو يهملون قصها نهائيًا حتى تصبح كشعر البنات . . أو يرسمون على وجوههم دوائر وأشكالاً سيريالية عجيبة ، أو يطلون وجوههم بلون أبيض كلون الدقيق ، أو يتخذون شكلاً شيطانياً فى حواجبهم وقرون الشعر المدببة فى رءوسهم ، لكن هذا بلاء آخر لا وجه بمقارنته بمظاهر الاحتجاج النفسى البسيطة المألوفة عندنا كنسيان تعليمات الأهل بشأن خلع الحذاء فى المكان المخصص لذلك ، ومن ناحية أخرى فإن لكل إنسان عاداته وطباعه . . وتفرده الخاص الذى ينبغى لنا أن نعترف له بحقِّه فيه ونتسامح معه فى ذلك مادام لا يؤثر على التزامه الخلقى والدينى ، أما « النقائض » و«العيوب» والهوايات الغريبة المختلفة التى يتنقل بينها ابنك الشاب من سنة إلى أخرى ، فلا شىء فى كل ذلك ، ولا هو مؤشر لأى انحراف نفسى أو خطر محتمل يمكن أن يؤثر على نجاح الشاب وتحقيقه لأهدافه وطموحه فى الحياة وما أكثر الأمثلة على أشباه

تلك «العيوب» و«النقائص» التى أنكرها بعض الآباء والأمهات على أبنائهم وتخوفوا من تأثيرها عليهم فى المستقبل ، فإذا بهؤلاء الأبناء أنفسهم يحققون فى الحياة من النجاح والتألق ما لم يحققه هؤلاء الآباء أنفسهم ، فالرئيس الأمريكى إبراهام لنكولن مثلا (١٨٠٩- ١٨٦٥) كان لا يرتدى إلا الملابس الواسعة المتهدلة كابنك تمامًا وكان رث الهيئة وبشع الشكل والمنظر وقد عجزت زوجته عن أن تخلصه من مظهر المحامى الريفى الذى يبدو به ، ومع ذلك فلقد فاز برئاسة الولايات المتحدة ودخل التاريخ من أوسع أبوابه وارتبط اسمه بمشروعه العظيم لتحرير العبيد فى أمريكا .

وعبد الناصر نفسه كان لا يهتم كثيراً بمظهره وكانت بدلته من طراز تقليدى لا يساير المودة السائدة فى زمنه ، وبنطلونه واسعًا فضفاضًا حتى ليتهدل وينزل عن وسطه كل حين فيرفعه مرة أخرى ، ولم يكن الناس يتعاملون مع ملابسه ، وإنما مع شخصيته ، وكانت هيبته تسكن القلوب .

والرئيس الراحل أنور السادات كان قصيراً كابنك أيضًا على عكس ما يعرف الكثيرون عنه وعلى عكس ما كانت توحى به صورته فى الصحف ووسائل الإعلام المختلفة ، ولم يحل قصره بينه وبين أن يقوم بما قام به من أدوار فى تاريخ بلاده وتاريخ المنطقة كلها ، ونابليون بونابرت كان قصيراً كذلك قصراً ملفتًا للنظر فعوض قصره ، بالتفوق العسكرى وأصبح قائداً لأحد جيوش فرنسا وهو فى العشرينات من عمره .

والكاتب الألماني توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥) كان لديه مكتب فخم للكتابة كالمكتب الذى تخصصه لمذاكرة ابنك ويهجره ، ومع ذلك فلم يكن توماس مان يكتب عليه أبداً وإنما كان يكتب على مائدة السفرة ، أو وهو مسترخ على شيزلونج طويل ، وفشلت معه أيضًا كل جهود الأهل لأن يجلس إلى مكتبه فى وضع صحِّى ويكتب ما يريد من مؤلفات ومقالات !

ونجيب محفوظ لا يحب كابنك ارتداء ربطات العنق بل يكرهها ويذهب إلى أى مكان وأية مناسبة بالبدلة والقميص بدون كرافت ، وقد شهد حفل تكريم الدولة له بمناسبة فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٨٨ ، وألقى كلمته أمام الرئيس مبارك وهو بالبدلة وتحتها بلوفر صوفى بلا كرافت .

أما هوايات ابنك التى تراها غريبة ويتقلَّب بينها من عام إلى آخر فلو حكيت لك عن هوايات العظماء الغريبة وبعض عاداتهم غير المألوفة لاحتجت إلى صفحات طوال لأعدِّد لك بعضها لكن يكفى أن أقول لك فقط إن تجدد الهوايات وتعددها بل وغرابتها أيضًا لا شيء فيه ولا خطر ، فرئيس الوزراء البريطانى العتيد الذى قاد بلاده للنصر على الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، ونستون تشرشل لم يكن يحلو له وقت وسط أعبائه الجسام إلا وهو يمارس هواية البناء بالطوب والأسمنت و«المسطرين» فى ضيعته ببلدة تشارتويل ، وقد بنى سور بيته الرِّيفى فيها بنفسه ، كما كان يمارس الرسم أيضًا ويجمع

«قصافات» السيجار من كل الأنواع . . ويقضى بعض الوقت فى تنظيفها وتأملها !

والعالم الألمانى العبقرى أينشتاين كان يهوى العزف على الكمان ، ويحب مشاركة العازفين المحترفين عزفهم فى الحفلات الخاصة رغم تذمرهم من مشاركته لهم فى ذلك لعجزه عن ملاحقة أدائهم المحترف للعزف الموسيقى ! والجنرال دوايت أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية الخمسينات ، كان يحتفظ فى محفظة نقوده ، بسبع قطع من العملة البرونزية التى لا تزيد قيمها عن ملاليم ويعدّها من حين لآخر ويلهو بها ثم يعيدها لمحفظته ويتفاءل بها وقد رافقته معظم مراحل حياته !

ومعظم هؤلاء . . بل ومعظم الناجحين فى حياتهم . . لم تخل حياتهم من انتقاد ذويهم لبعض تصرفاتهم وعاداتهم وسلوكياتهم . ومع ذلك فقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ، فلماذا تريد لابنك أن يكون مثالا نادراً للانضباط العسكرى فى كل شىء . . مع أنه والحمد لله شاب ملتزم دينيًا وخلقيًا ومتفوق فى دراسته وطيب القلب ومحب للناس وللحياة ؟ . .

وتوقفت عن الحديث برهة لأدقق فى اختيار كلماتى حتى لا أجرح مشاعر صاحبى ثم قلت له :

إننى أقدر مشاعرك الأبوية ورغبتك الطبيعية فى أن يكون ابنك أفضل الأبناء وأجدرهم بالسعادة والنجاح فى الحياة ، لكننى أخشى

أن تكون قد انجرفت كما ينجرف كثيرون إلى «الفخ» الذى عبر عنه المفكر الفرنسى فولتير حين قال على لسان «كانديد» فى الرواية التى تحمل نفس الاسم : ثمة متعة فى انتقاد كل شىء . . وفى كشف الأخطاء فيما يراه الآخرون جميلاً !

فالحق أننا كثيراً ما نقع فى هذا الفخ إذا لم نحترس له فنتورط فى انتقاد كل شىء فى أعزائنا والمقربين منا وفى الآخرين جميعًا ونسعد بكشف الأخطاء فيما يراه غيرنا جميلاً ولا ضير فيه ، فتكون النتيجة هى أن نتصادم مع من نتمنى لهم «الكمال» ولا كمال إلا له للخالق العظيم وحده وتحدث فجوة نفسية ومعنوية بيننا ، وبين من نحبهم ونريد لهم أفضل الأشياء فى الحياة ، فإذا بنا بدلا من أن نحقق ذلك نرهقهم بالانتقاد بالحق والباطل . . ونكلفهم من أمرهم رهقًا ونطالبهم بأن يكونوا ملائكة من ذوات الأجنحة لا بشراً كالبشر !

وأطرق صديقى برأسه مفكراً ومتأملاً للحظات ثم رفع رأسه إلىَّ وقد انبسطت ملامحه واختفت منها آثار القلق السابق وقال لى متسائلاً : إذن بماذا تنصحنى أن أفعل ؟

فأجبته بأننى أنصحه بأن يشكر ربَّه كثيراً . . آناء الليل وأطراف النهار وفى الأسحار على ما أنعم به عليه من نعمة يفسد على نفسه التمتع بها بتركيز انتباهه على التوافه من الأمور حتى لو كانت صائبة ، وبأن يجعل من عادات ابنه التى يستنكرها هذه . . نادرة من نوادر الأسرة الخاصة التى تتندر بها وتضحك لها مع الابن ، لا أن تتسخط عليها وتجعل منها سببًا للملاحاة والنزاع والشجار معه ، وبذلك فقط

قد يتخلَّص الابن تدريجيًا منها أو من بعضها مع تعمق خبرته بالحياة ، ومع اقتناعه الذاتى وليس الخارجى ، بأن حياته سوف تصبح أفضل وأكثر يسراً لو ازداد إيمانًا بأهمية النظام لتحقيق النجاح . ومددت يدى لصديقى وهو يغادرنى راضيًا ، فتذكرت فجأة ذلك البيت القديم من الشعر المدرسى الذى كان مدرس اللغة العربية يكرره علينا وقتها كثيراً :

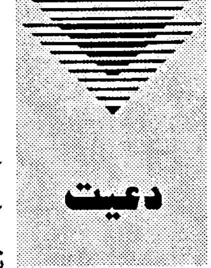
نعم الإله على العباد كثيرة    وأجلَّهن .. نجابة الأبناء

و«النجابة» لغويًا هى « النباهة وظهور فضل الولد على أترابه » لكننا للأسف لم نكن ولا كانت أعمارنا تسمح لنا وقتها بأن نفهم هذا البيت حق فهمه ، ولا أن نقدر هذه النعمة الجليلةحق قدرها ، ثم علمتنا الأيام وتجربة الحياة ما لم نكن نعلم ، وعرفنا كم كان هذا البيت الذى كنا نتندر به أحيانًا صادقًا وجميلا ومعبراً عن أعظم المعانى والنعم الحقيقية .

وإذا كنت أرجو الآباء والأمهات دائمًا أن يقبلوا ببعض السمات والعادات الهيّنة التى يتصورونها غريبة فى طبائع أبنائهم ، فلا بأس بأن أرجوك أنت أيضًا يا صديقى ألا تنسى إعادة غطاء أنبوبة معجون الأسنان إلى موضعه لكى تكتمل سعادة الآباء والأمهات «بنجابة» أبنائهم ويستريح الجميع !



# لكنه شخص آخر !



دعيت إلى هذه الجلسة الطارئة على وجه السرعة ، وأكَّد عليّ الداعى ضرورة الحضور ، وإلا فلن يكتمل نصاب الجلسة ! أكَّدت له صدق نيتى فى الحضور ، والمشاركة فى أعمالها وتوجهت إليها بالفعل فى الموعد المحدد .

كان مقر الاجتماع بيت أحد الأصدقاء . . وكان جدول الأعمال يقتصر على موضوع واحد ، هو الفصل فى خلاف مؤسف بين صديقين حميمين والانتصاف لأحدهما من الآخر ! أما المحلفون الذين سيسمعون دفاع كل منهما عن نفسه وادعاءاته على الآخر . . فقد كانوا ثلاثة من الأصدقاء المشتركين تراضى الطرفان على الاحتكام إليهم ، وقبلوا مقدمًا ، بما سوف يحكمون به .

وفى الموعد المحدد جاء المتقاضيان أحدهما وراء الآخر ، ونهضنا للترحيب بكل منهما . . وتصافح الخصمان بأدب ، ولكن بمشاعر حيادية ، ثم جلس كل منهما فى ناحية . تبادلنا الحديث لبعض الوقت . قبل أن تبدأ الجلسة ، فلاحظت أن كلا الصديقين يتجنَّب النظر ناحية الآخر ، وأنه يبدو فى جلسته كطفل غاضب ينتظر من ينصفه ويسترضيه . وتذكرت وكلاهما يجلسان فى مواجهتنا . أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار ، ما حدث حين جاء يهودى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليشكو له عليًا بن أبى طالب فى دين أو نزاع بينهما ، وكان إمام المتقين علىٌّ يجلس إلى جوار عمر ، فحرص العادل عمر على أن يساوى بينه وبين خصمه فى مجلس القضاء ، فطلب منه أن ينهض من جواره ، ويقف إلى جوار خصمه ، لكى يتحدث كل منهما بما عنده قائلاً له : ساو خصمك يا أبا الحسن ، فظهر الغضب على وجه علىٍّ ، ونهض فوقف إلى جوار اليهودى ، وعرض الرجل ادعاءه . . وعرض علىٌّ دفاعه ، فقضى عمر بينهما بما رآه عدلا . وبعد انصراف المدَّعى راضيا ، سأل عمر عليًا : أكرهت أن تساوى خصمك يا على ؟ فأجابه إمام المتقين عاتبًا : بل كرهت أن تميزنى عنه فتنادينى أمامه بكُنيتى ( يا أبا الحسن ) !

فتساءلت صامتًا ، وأنا استرجع هذه القصة . . وأين لنا بعدل عمر . . وتقوى علىّ ؟

بعد قليل تحدث صاحب البيت عن عمق الصداقة التى تجمع بين هذين الصديقين المتقاضيين ، وواجبنا فى إنقاذها من الانهيار بفعل أسباب عارضة، فتعجبت لما آل إليه الحال بينهما فى الشهور الأخيرة ، وقد كان كل منهما نعم الصديق المخلص لصديقه معظم سنوات العمر . . حتى لينطبق عليه قول أبى العتاهية :

صديقى من يقاسمنى همومى
ويرمى بالعداوة من رمَانى

ويحفظنى إذا ما غبت عنه
وأرجوه لنائبة الزمان !

فقد جمعت بينهما الصداقة ، منذ مرحلة الدراسة الجامعية ، وتشابكت خيوط حياتهما وذكرياتهما معًا بعد ذلك فى كل مراحل العمر ، وتساندًا فى كل مواقف الحياة واختباراتها . . وكان كل منهما شديد الإعجاب بفضائل الآخر ومواهبه وقدراته ، ويتحدث عنه فى غيبته بأفضل مما يتحدث عنه فى مواجهته « ويرمى بالعداوة » من يرمى بها صديقه ، حتى لا تكاد تفرق بين خصوم هذا وذاك إن كان لهما خصوم ، وهما فى الحقيقة شخصان فاضلان ومسالمان ، ويتهم كل منهما الآخر دائمًا بالسذاجة «والخيبة» ويؤكد للجميع أنه لولاه لكان صديقه قد غرق فى أكثر من ورطة شديدة ، وهذا صحيح فى إجماله ، فقد كان كل منهما يكمل نقص الآخر ، ويجبر كسره ،

وعلى عمق الصداقة وشدة الحب المتبادل بينهما ، فلقد كنت أشعر بأن كليهما يتهيَّب الآخر ، ويعمل له ألف حساب ، ويحرص إذا أوقعته سذاجته فى عثرة من عثراته ، ألا يعلم بها صديقه الآخر لكيلا يسلقه بلسانه الحاد ناعيًا عليه خيبته قبل أن ينهض لإقالة صديقه من هذه العثرة ، ولم أكن أعجب لأمرهما فى ذلك فالصديق الحق إنما يتهيب بالفعل صديقه إلى حد يكاد يقترب به من إحساس الخوف الإيجابى منه ، وأقصد بالخوف الإيجابى هنا ذلك الإحساس الإنسانى النبيل الذى يدفعك للحرص على عدم إغضاب من تحب . . وإلى الخوف من أن تفقده فتحرص على أن تروى شجرة صداقتك له بماء الحب والاهتمام والرعاية ، وأذكر فى هذا المجال أن أحدهما وسوف أرمز له باسم مجدى قد أقرض زميلاً له فى العمل مبلغًا كبيراً ، على وعد منه بالسداد فى موعد محدد لكى يسدد مجدى قسط شقة اشتراها لابنه فى تاريخ معين ، وحل موعد سداد الدين ، فراوغ المدين دائنه وفشلت معه كل محاولاته . . ووجد مجدى نفسه فى موقف حرج ، وقد تأخر عن موعد سداد القسط فسألنى عن محام أمين يساعده فى اقتضاء دينه ، وتعجبت للطلب وأنا أعرف أن شقيق زوجة صديقه المخلص الذى أرمز له باسم صالح ، محام أمين وسألته لماذا لم يستعن به ، فإذا به يجيبنى ، وهو يتلفت حوله كأن أحدًا يتلصص علينا ، بأنه يخفى هذا الأمر عن صديقه ؛ لأنه كان قد حذره من إقراض هذا الزميل المراوغ ، فلم يستمع لنصيحته ! وضحكت مما بدا عليه من

جزع لاحتمال أن يعرف صالح بالأمر ويسلخه بلسانه اللاذع لومًا وتقريعًا وسخرية ، من سذاجته وخيبته . . وحماقته !

وعرَّفته بمحام أمين بالفعل ، ومع ذلك فلقد ، علم صالح بالأمر ، ولم يضيع وقته فى لوم صديقه هذه المرة ، وإنما توجه إلى البنك وسدد عن صديقه قسط الشقة قبل أن تتضاعف عليه الفوائد ، ثم ذهب إلى ذلك الزميل المراوغ وهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يسدد دينه خلال ٤٨ ساعة ، فإذا بهذا الزميل يسدد دينه بالفعل ؛ لأن تدخل صالح فى الأمر قد أخافه ودفعه للكف عن المماطلة ! وبعد ذلك نال مجدى من صديقه ما يكفيه من كلمات اللوم والتوبيخ ! وكان منظره وهو يجلس بين يديه كالتلميذ المذنب يتلعثم ويدافع عن نفسه بأعذار واهية ، يثير الشفقة والاحترام فى نفس الوقت لهذه العلاقة الإنسانية النبيلة التى تجمعهما ، وعلى هذا النحو مضت حياة الصديقين ، وقد جمع بينهما تناسب المزاج النفسى وتشابه الرؤية للحياة ، حتى أنى كثيراً ما تذكرت وأنا أرقبهما كلمة أرسطو الشهيرة- صديقك هو أنت غير أنه شخص آخر !

فماذا جدَّ عليهما حتى تغاضب الصديقان وتباعدا وسعى بينهما الأصدقاء المشتركون لعقد هذه الجلسة . . والفصل فى نزاعهما !

أما القصة فلقد رواها كل منهما من وجهة نظره . . قبل ذلك ، لكننا قررنا أن نعمل فى هذه الجلسة بمبدأ ، ألا يحكم القاضى

بعلمه . . وإنما بما يعرض عليه من وقائع وبراهين ، فدعوناهما للحديث أمامنا . . ودعا كل منهما الآخر فى أدب لأن يتحدث قبله !

وتبادلنا نحن النظرات الباسمة متفائلين بهذه البداية المشجعة . . ثم حللنا الإشكال بدعوة مجدى للكلام ؛ لأنه البادئ بالشكوى من صديقه ، فتردد قليلاً ، ثم روى لنا بصوت خافت كيف أن صديقه قد انشغل عنه خلال العامين الأخيرين ، ومنذ أن تولى منصبه الكبير ، فلم يعد نفس الصديق الذى كان ، وإنما تغيَّرت روحه فأصبح رجلاً خطيرًا مشغولاً بعمله عن الجميع ، ولا يهتم بأمر أحد ويتوقع من الآخرين فى نفس الوقت أن يهتموا بأمره ويجاملوه فى مناسباته المختلفة بغير أن يرد عليهم مجاملاتهم أو يهتم بأمرهم على خلاف طبيعته المجاملة السابقة وإخلاصه القديم ، ولقد قدر هو فى البداية ظروف عمله وتجاوز عن تقصيره فى حقِّه لأن من واجب الأصدقاء أن يتحملوا ظروف أصدقائهم ، ويتفهموا أسبابهم ، فلم يعتب عليه فى شىء . . وتمنى له دائمًا التوفيق والسداد فى عمله وحياته ، واكتفى بالاتصالات التليفونية المنتظمة ، وبزيارته له من حين لآخر حيث كان يجده دائمًا شاكيًا وعاتبًا عليه هو إهماله له مع أنه الذى يسعى إليه ، إلى أن توفى شقيقه منذ شهور وتلفت مجدى حوله فلم يجد خلَّه الوفى إلى جواره يشد من أزره فى هذه المحنة الأليمة كسابق عهدهما معًا فى كل مناسبات الحياة الحزينة والسعيدة على السواء . . ومع كل ذلك فلقد التمس إليه العذر فى مشاغل عمله ، وتغاضى متألمًا عن

افتقاده لصديقه فى هذا اليوم العصيب . . ففوجئ به يجىء فى المساء إلى سرادق العزاء كالغرباء . . ويقف إلى جواره بعض الوقت ثم يستأذن فى الانصراف لأنه سيسافر فى مهمة عمل فى فجر اليوم التالى ، فودعه متمنيًا له التوفيق ، وهو يترقَّب عودته من سفره بصبر نافد ليجد عنده العزاء والسلوى والسند المعنوى له فى محنة فراق شقيقه الذى كان بمثابة الأب الروحى للصديقين معًا منذ سنوات الجامعة ، فإذا بالأيام الثقيلة تمضى ببطء مرير ، والصديق مازال غائبًا عنه ، وهو يظنه على سفر إلى أن علم بالمصادفة أنه قد رجع من مهمته بعد يومين فقط من سفره وشغلته عنه مشاغل العمل ، ودائرة العلاقات الاجتماعية الجديدة التى انخرط فيها بعد أن تولى منصبه . . ومضى شهر طويل ولم يرجع إلى صديقه أو يسأل عنه ، وهنا فقط توقف مجدى لمراجعة علاقته به فى العامين الأخيرين ، واكتشف أن صديقه قد اعتاد هذا التقصير فى حقه منذ أن شغل منصبه الخطير ، فانفجر بركان الغضب الكامن فى نفسه ، وقاطعه ، ولم يقبل اعتذاره له حين اتصل به بعد أسابيع ، واختتم الصديق مرافعة الاتهام متسائلا : هل أكون مخطئًا إذن إذا عاملته بنفس الطريقة وبادلته إهمالا بإهمال ؟

ولم يجب أحدنا على هذا التساؤل وإنما تلفتنا إلى الصديق المتهم ننتظر كلمته ، فنظر إلى صديقه عاتبًا ومتألمًا ثم تحدث حديثًا عاطفيًا طويلاً عن عمق صداقتهما معًا منذ شرخ الشباب ، وكيف أنه لم يشعر

طوال حياته بمثل هذا الحزن الذى يشعر به الآن وصديقه يتهمه فى إخلاصه وفى صداقته ، ويدعى عليه تغيُّر روحه بعد توليه منصبه ، وهو الذى لم ولن يتغير بالنسبة لأصدقائه مهما شغل من مناصب ، لأن المنصب لا يدوم ولا يغنى الإنسان عما يحتاج إليه من زاد نفسى صادق لا يجده إلا لدى أصدقائه المخلصين ، أما عن تقصيره فى حق صديقه خلال محنة وفاة شقيقه ، فلقد كانت له أسبابه وظروفه ، وقد شرحها مرارًا لهذا الصديق الظالم والتمس لديه العذر فيها ، لكنَّه كان قد أغلق باب التسامح فى قلبه فلم يقبل بها ، مع أنه كان دائمًا يجد لديه الصدر المتسامح والقلب الغفور فى كل مواقف الحياة المختلفة ، فماذا جدَّ إذن على « روح » صديقه ! ولماذا أصبح ضيق الصدر تجاهه هكذا ، وكيف يحمل له هذه المشاعر السلبية وهو الذى لم يحمل له طوال العمر سوى أصدق مشاعر الحب والإخلاص والاحترام ، وكيف يتهمه فى مبادئه وأخلاقياته ، فيدعى عليه أنه قد نسى أصدقاءه القدامى تأثرًا بمنصب زائل . . ومشاغل لن تدوم !

ثم اختتم مرافعته موجها حديثه إلى صديقه قائلا : إننى أفضل كثيرًا مما تظن بى وبأخلاقى . . ومن المؤسف حقا أن يكون هذا هو حكمك على شخصيتى بعد هذه السنوات الطوال . . ولا تفسير لذلك عندى سوى أحد أمرين ، إما أن يكون كلانا قد خدع فى الآخر كل هذه السنين ، وإما أن يكون كلانا يظلم الآخر ويتجنَّى عليه بعد هذه الرحلة الطويلة من الصداقة والوفاء !

وتكهرب الجو فى الجلسة فجأة مع هذه الكلمات الأخيرة ورفع الصديق الآخر رأسه وقال موجهًا حديثه لصالح متسائلا وباستنكار :

- أنت خدعت فىَّ كل هذه السنين ؟ إذا كان ثمة خداع فى الأمر ، فلا بد أن المخدوع هو أنا ولست أنت . . وعلى أية حال فيكفى هذا القدر من الإهانة . . وشكرًا لك .

ثم نهض غاضبًا ففزعنا إليه وأعدناه إلى مقعده بجهد جهيد ، وكان أكثرنا جهدًا لإرجاعه لمقعده والتمسك بعدم انصرافه هو الصديق المتهم نفسه الذى سكت قليلا ثم استأنف مرافعته فكان ختامها مناقضًا تمامًا لبدايتها . . فلقد تنازل فجأة عن مجادلة صديقه حول من الذى تغيَّر منهما ، ومن الذى خُدع فى الآخر إلى آخر هذا الحديث الثقيل ، والتفت إلينا مستنجدًا قبل أن يقول لصديقه : وهبْنى قد قصرت فى حقك فى محنة وفاة شقيقك وطوال الفترة الماضية وهَبْ أن كل أعذارى لذلك ليست مقبولة لديك ، ألم يكن فى تاريخى معك ما يشفع لى عندك فى التجاوز عن هذا التقصير ؟ يا سيدى إننى أتنازل عن الاحتكام للأصدقاء ، وأقر بخطئى وتقصيرى فى حقك أمامهم . . وأطلب منك العفو والسماح . . وأعدك ببدء صفحة جديدة من صداقتنا التى صمدت لعوامل الزمن كل هذه السنين . .

فلماذا لا تصفح عنى وأنت الرجل المتسامح مع الجميع ؟ ولماذا تصر على عقابى ومقاطعتى بهذه القسوة الغريبة عليك ؟

وسرت أحاسيس الارتياح فى نفوسنا لهذه النغمة العاطفية المختلفة وتوقعنا أن يجيبه الصديق بكلمات طيبة وينتهى الموقف ، لكنه ظل حانى الرأس صامتًا على عكس المتوقع . . فإذا بالصديق المتهم ينهض من مقعده ويتجه إليه مستأنفًا حديثه أو استعطافه له : إننى أعرفك أكثر ما تعرف نفسك . . وأعرف أنك تعيس بهذا الجفاء بيننا مثل تعاستى به وأكثر ، فلماذا تقسو على نفسك وعلىَّ بهذا الموقف الغريب ؟ وماذا تريد من ترضية أقدمها لك أمام الأصدقاء لكى ترضى وتصفح . . هل تريدنى أن أقبل رأسك أمام الأخوان؟ ها أنذا أفعل . . وأقبل لا رأسك فقط . بل ويدك أيضًا . . ثم اندفع إلى صديقه فقبل رأسه . وانحنى على يده يريد تقبيلها فانتفض الصديق الآخر مرتبكًا كأنما قد لدغه العقرب وسحب يده بسرعة قبل أن يقبض عليها الآخر . وتراجع للوراء وصديقه يطارده مصرًا على أن يقبل يده وهو يخفى يديه خلف ظهره ويتمتم مرتبكًا : العفو . . العفو . . ودموعه تسيل على خده والدموع تترقرق فى عيون الصديق المتهم وعيوننا جميعًا ! وفضضنا الاشتباك بينهما أخيرًا وأعدنا كلا منهما إلى مقعده فجلس

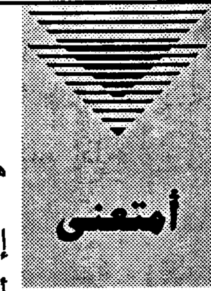
مبهور الأنفاس مضطربًا بالانفعال تأثرًا بهذه المشاعر النبيلة ثم تمالك أحدنا نفسه بعد قليل فضحك أو تضاحك بمعنى أصح ليغير من جو الجلسة وقال موجهًا حديثه للصديقين : لعنة الله عليكما معًا هكذا أنتما منذ عرفتكما فى أيام الجامعة «تتنافران» وتتراشقان ، بالإتهامات حتى نظن أنه الفراق الذى ليس بعده تلاق بينكما ثم يقبل أحدكما رأس الآخر فى النهاية وتصفو لكما الصداقة وترجع أقوى مما كانت !
وضحكنا جميعًا للمداعبة ، وتنفسنا الصعداء بعد عودة الصفاء بين الصديقين ، ومضت الجلسة بعد ذلك بهيجة وممتعة ولاحظت منتشيًا أن الصديقين قد رجع كل منهما بعد قليل إلى طبيعته مع الآخر ، فراحا يتبادلان الحديث الودى . . بل و«النقار» المعتاد بينهما ، ثم آذنت الجلسة بالانتهاء ، فتحركنا للانصراف وودَّعنا صاحب البيت عند باب الشقة . . ولاحظنا أن الصديقين قد راح كل منهما يدعو الآخر لأن يتقدمه فى الخروج ، فابتسمنا للمفارقة بين حرارة العواطف فى نهاية الجلسة . . وبين جفافها وبرودها فى بدايتها ، وعلق أحدنا مداعبًا صالح ومجدى ، على هذا «الأدب» المفاجئ فى تعامل كل منهما مع الآخر ، فإذا بصالح يقول وهو يرمق صديقه بحذر :

- إنه ليس أدبًا . . وإنما خوف ونفاق رخيص لهذا الوغد الذى خاصمنى بلا ذنب لعدة شهور . . عسى أن يجدى معه «ويثمر» فيه !

فإذا بمجدى يجيبه قائلاً لنا : هكذا هو منذ ثلاثين عامًا . . تحسبه للسانه الحلو وقدرته على التأثير فى الآخرين مظلومًا ، وهو فى الحقيقة ظالم . . ومفترى . . وابن ستين فى سبعين ! وتحركنا فى اتجاه الخروج مبتهجين بهذا الختام السعيد ، وفى أعماقى تتردد كلمة الدكتور أحمد أمين البليغة : ما أكثر أسفى لو فقدت صديقًا ، وما أكثر فرحى إذا عثرت على صديق بمعنى الكلمة !



# كن عبقرياً .. واصنع ما شئت !




هذا الكتاب وأدار رأسى !

إن مؤلفه يحذرك قبل أن تبدأ قراءته . . من أنك ستندهش وتتعجب وربما تضحك لبعض ما تقرأه . . لهذا فهو يقول لك فى مقدمته :

عزيزى القارئ : « اكتم أنفاسك واستفد بقدر ما تستطيع بقراءاتك لهذا الكتاب فكل كلمة من كلماته عمل من أعمال العبقرية ! وسوف يوضح لك هذا الكتاب أن الحياة اليومية للعبقرى ابتداء من نومه إلى هضمه إلى ابتهاجه ونشوته وأظافره . . إلخ تختلف تماماً عن حياة بقية البشر ! فهذه أول يوميات - يقوله لك المؤلف - يكتبها عبقرى كان من حسن حظه أن قد تزوج من امرأة فذَّة أسطورية فريدة !

فإذا كنت قد كتمت أنفاسك بالفعل واستعددت للقراءة فسوف أختار لك بعض فقرات وسطور مما كتبه المؤلف فى يومياته . . لكى تشاركنى متعتى بقراءتها . أما المؤلف فهو الفنان الأسبانى العالمى العبقرى سلفادور دالى الذى مات منذ سنوات واشتهر خلال حياته بتقاليعه العجيبة ابتداء من طرفى شاربه الطويلين المنتصبين إلى أعلى كإيريال السيارة إلى ملابسه «الفضائية» الخاصة التى كان يصممها لنفسه ويبدو فيها كرواد الفضاء . . إلى سيارته أو قوقعته الزجاجية التى صممها أيضًا لنفسه وكان يركبها ويظهر بها فى المناسبات الرسمية لكيلا يحرم البشر العاديين من رؤية العبقرية على الطبيعة إذا ما توارى داخل سيارة عادية كباقى البشر ، إلى مفاجآته الصارخة كذهابه إلى جامعة السوربون فى باريس لكى يلقى فيها محاضرة ، راكبًا سيارة رولز رويس ثمينة مملوءة عن آخرها بثمار الكرنب الكبيرة ، بحيث لا يبدو منها سوى رأسه ! إلى مالا نهاية له من أمثال هذه التصرفات والأفعال غير المألوفة التى يعترف لك بشجاعة وصدق فى يومياته بأنه كان يفتعلها لكى يشد انتباه العالم إليه . . ولأنه يؤمن بأن ما يلتزم به البشر العاديون فى حياتهم الخاصة من مراعاة الأعراف السائدة لا ينبغى أن يلتزم به العباقرة . . لأن العبقرية فى رأيه ضد القيود ؛ ولأنه لا يهم ماذا سيقول عنك الناس وإنما أن «يقولوا» ويظلوا يقولون دائمًا مدحًا أو نقدًا ، لكى تبقى فى بؤرة الاهتمام !

ولأن الأهم هو أن تكون عبقريًا أى متميزًا فى مجالك بالعمل والكفاح الطويل وبعد ذلك لك أن تفعل ما تشاء ثمنًا لما أسديته إلى البشرية من ثمار عبقريتك وعملك ، ويقول لك فى ذلك : « أجد عملك وفقًا للقواعد السائدة فى البداية وتفوق فيه كما لا يستطيع غيرك أن يفعل . . وبعد ذلك تحرر من كل هذه القواعد وافعل ما تشاء . . فلقد أصبحت عبقريًا » !

أما المرأة الأسطورية التى يشير إليها فى مقدمة يومياته . . فهى زوجته جالا التى يتغزل فيها طوال اليوميات ويعتبرها هبة الله الثمينة له . . ويشير إليها فى أكثر من موضع من يومياته بكلمة «كنزى» وقد كانت قبل أن يعرفها زوجة للشاعر الفرنسى السيريالى بول أيلوار «١٨٩٦ - ١٩٥٢» وطلقت منه وأحبَّها دالى وتزوجها زواجًا مدنيًا رفضت الكنيسة الكاثوليكية الاعتراف به لموقفها المعروف من عدم الاعتراف بالطلاق الأول ، فظل دالى يكافح سنوات طويلة حتى استطاع أن ينتزع موافقة الكنيسة الكاثوليكية على زواجه منها واحتفل بزواجه الدينى بها بعد أكثر من عشرين عامًا !

ولا أريد أن أستطرد فى الحديث عن شخصية سلفادور دالى وزوجته أو « كنزه » الثمين جالا لكيلا أحرمك من متعة قراءة بعض سطور يوميَّات هذا الفنان العبقرى الذى بيعت لوحاته بملايين الدولارات والذى يقول «بفخر» فى هذا الكتاب :

الفرق الوحيد بيني وبين المجنون هو أنني لست مجنونًا! يقصد بذلك أنه يستمتع بكل ما يستمتع به المجنون من حرية أن يفعل أى شيء يريده وفى أى مكان بغير أن يلام على ما يفعل؛ لأنه ليس على المجنون حرج. . ولا على العبقرى أيضًا مع فارق هام. . فالعبقرى على خلاف المجنون يعى جنونه. . ويفخر به. . ويستثمره لصالح فنه!

وهذه شذرات اخترتها لك بعناية من كتابة الممتع وتجنبت فيها إثارة «قرفك» بما كتبه بصراحة فريدة وعجيبة عن «شئون العبقرى المختلفة» حتى فى دوره المياه . . بل وعن حركة الأمعاء الطبيعية لكل إنسان التى يصر سلفادور دالى على أنها لديه مختلفة عنها لدى البشر العاديين !

كان دالى قد انضم فى شبابه إلى جماعة السيرياليين فى باريس وكانت تضم مجموعة من الفنانين والكتاب الذين يدعون إلى تحرير الفنان من قواعد الفن والأدب الصارمة وتحرير الإبداع من المنطق والعقل والمعقول ، وإلى النفاذ إلى عالم اللاوعى والأحلام والتهويمات الغامضة . ثم اختلف مع هذه الجماعة فطردته بسبب لوحة رسمها للزعيم الشيوعى السوفيتى لينين مستخدمًا وجهه على جسم مشوه ، وفى يومياته العجيبة هذه حكى كيف واتته فكرة العبث بجسم لينين . . وكيف استغرق فى تخيلها فقال :

« وانغمست فى رؤية تأملية عميقة . . وكما يحدث لى مراراً حين أكون مندمجًا فى مثل هذه الرؤية التأملية . . فقد بللت سروالى ! »

ولم تنزعج «جالا» التى كان قد عرفها فى هذا الوقت من «أثر» الاستغراق فى الرؤية التأملية عليه ! . . وإنما أيدته فى فكرة اللوحة السيريالية ودافعت عنه حين اشتد هجوم أعضاء الجماعة عليه ، وحين هجرها مطروداً . . ونادى بالتحرر حتى من قواعد السيريالية نفسها !

وتتوالى بعد ذلك غرائب هذه اليوميات بقلم دالى المفتون بنفسه وبعبقريته بلا حدود :

- فى كل صباح ينتابنى بمجرد الاستيقاظ فرح غامر حرت فى تفسير أسبابه حتى اكتشفت سره اليوم فقط وهو كونى سلفادور دالى وإنى لأسأل نفسى كل يوم ما هى الأعجوبة التى سيحققها دالى هذا النهار . . وكيف يستطيع الآخرون أن يحتملوا حياتهم بغير أن يكونوا «دالى» أو «جالا» ؟

- مات رجل فى المكسيك عن عمر يناهز المائة والخمسين عامًا تاركًا وراءه « يتيمًا » فوق المائة من العمر ! إننى أود أن أعيش أطول من هذا الرجل ، وأعتقد أن العلم قادر بمشيئة الله بالطبع على إطالة عمر الإنسان إلى هذا الحد !

- سمعت ثلاثة أشخاص يتحدَّثون عن غوامض الكون فقلت لهم : إنه لا شىء مما يحدث فى الكون يدهشنى ، فقال لى أحدهم

تخيل أنك رفعت رأسك الآن ونحن فى منتصف الليل ورأيت الشمس تشرق على غير انتظار . . ألا يثير ذلك دهشتك . . إننى لو حدث لى ذلك لاعتقدت على الفور أننى قد جننت فقلت له بهدوء : بالنسبة لى فإن الأمر يختلف . . لأنى سأعتقد لحظتها أن الشمس هى التى جنت !

- أثناء بحثى فى أحد الكتب عن صورة أسد لكى أرسمه فى إحدى لوحاتى سقط من الكتاب مظروف قديم فتحته فوجدت فيه بطاقة شكر من ريموند روسل « صديق له انتحر قبل فترة وتألم دالى لموته » . . فغلبنى الانفعال لذكراه ، وشاهدت جالا عائدة من النافذة فخرجت إليها لاحتضن « كنزى » الذى أرسله الله لى ورأيتها فى هذه اللحظة أكثر شبهًا بأسد متروجولدوين ماير وشعرت بأنى أحبها بشكل جارف فطلبت منى «أن تبصق على جبهتى» لكى تطرد منها أفكار الموت ، ففعلت ذلك على الفور !

- دلقت القهوة على قميصى . رد الفعل الأول لمن هم ليسوا عباقرة مثلى هو أن يمسحوها أما أنا فعلى العكس من ذلك فحتى فى طفولتى كنت أتحين الفرص لأدلق القهوة التى أشربها بين قميصى وجلدى وأستمتع بالبهجة التى أحس بها والقهوة تنساب من صدرى إلى بطنى . . وأترقب باستمتاع اللحظة التى يجف فيها القميص وينفصل عن جلدى وتفيض علىَّ فى لحظة الانفصال هذه مشاعر وأفكار فلسفية تستمر طوال اليوم . . وهذا جانب مجهول من مباهج حياتى السرية التى لا يعرفها أحد !

- اعتدت أن أنظر للصحف بالمقلوب وبدلا من أن أقرأ الأخبار فإنى أتخيلها « وأراها » بوضوح باصطناع بعض الحول فى عينى واليوم وأنا أمسك بالجرائد بالمقلوب رأيت أشياء رائعة تتحرك فقررت على الفور وبإلهام رفيع من فن دالى الشعبى أن أقوم بتلوين أجزاء من هذه الجرائد !

- الأغبياء يريدون منى أن اتبع النصائح التى أسديها للآخرين وهذا مستحيل بالطبع لأنى مختلف تمامًا عنهم !

- عند الغسق رجعت جالا من العيد وأرسلت إلىَّ الخادمة تطلب منى أن أنظر من نافذة مرسمى لأرى غروب الشمس الذى يلون البحر باللون البنفسجى ثم باللون الأحمر الصارخ فأشرت لها من النافذة أننى قد لاحظت ذلك . . ورأيت جالا فى هذا اليوم أجمل من أى يوم آخر فركعت ثانية لأشكر الله على جمال جالا الذى يصعب على أحد غيرى أن يدرك كل أعماقه !

- جاءنى شاب يطلب نصيحتى قبل سفره لأمريكا فنزلت لمقابلته بالزى الرسمى « أى بملابس الفضاء » وسألته عن طموحه فأجابنى أنه يستطيع تحمل الحياة بأقل قدر من التكاليف وأن يعيش على الفاصوليا والخبز الجاف فقلت له : لكى تحقق النجاح وتأكل الكافيار يجب أن تكون شخصية مختلفة عن تلك التى جئتنى بها . . فها هى أظافرك قذرة فى حين ارتديت لمقابلتك زيًا رسميًا . . وقميصك الذى ترتديه

لونه كلون السبانخ . . وهذا هو بالضبط اللون الذى يميز الفاشلين مثلك من الناجحين مثلى !

هل دارت رأسك مثلى بما فيه الكفاية ؟

على أية حال فإن الانطباع الذى خرجت به من قراءة هذه اليوميات العجيبة ومن قراءة كثير مما كتب عن مؤلفها هو أن دالى لم يكن مجنونًا فعلاً ولا يمكن أن يكون كذلك رغم كثير من تهويماته وشطحاته عن نظرية النقد الفنى المبنى على الهلوسة التى ابتدعها وغيرها من الأفكار العجيبة . . وإنما كان فنانًا عبقريًا يعى عبقريته إلى حد مذهل كما قال عنه أحد النقاد ، وشديد الإعجاب بنفسه وشديد الفخر والتعالى بها ولا يرى فى ذلك أى تعارض مع الفضائل ، ويتخذ هذا الموقف من الحياة والآخرين متعمداً ويسميه «انتفاش الفنان العبقرى» الضرورى على من يحاولون إشعاره بأنهم أفضل منه أو يفهمون أكثر منه ! وبسبب هذا « الانتفاش » طرد من أكاديمية الفنون الجميلة بمدريد وهو شاب صغير حين قال لأعضاء لجنة الامتحان إنه يعتقد أنه يعرف عن موضوع الامتحان «رسام عصر النهضة رفائيل» أكثر مما يعرفه كل أعضاء اللجنة مجتمعين !

وطرد من الجماعة السيريالية أيضًا بعد ذلك بسنوات فى ظروف لا تختلف كثيراً عن هذه الظروف ، لكنه للعجب كان من ناحية أخرى متواضعًا وبسيطًابل وشبه متصوف فى حياته الخاصة ومع الأشخاص العاديين والبسطاء والطلبة والشباب والمعجبين بفنه ، وقد

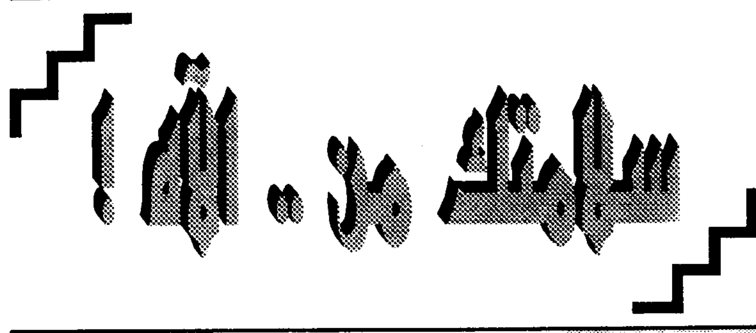
حقق مجده الفنى بالعمل الشاق اليومى لعشر ساعات كل يوم على الأقل فى مرسمه الذى يحتل جناحًا من بيته المطل على البحر فى إحدى قرى الساحل القريبة من برشلونة وبعده عن العبث واللهو والشراب الذى يبدد طاقة الإنسان فى حياة الكسل والتراخى ، فعاش حياة ثرية حافلة بالعمل والإبداع ولم يقتصر نشاطه على الرسم فعمل فى النحت وتصميم الديكور والأزياء وزجاجات العطر ونظم الشعر وتأليف الكتب وأخرج وأنتج فيلمين مع صديق له ، وقد روى فى يومياته العجيبة هذه أنه كان قد تعاقد مع شركة لإنتاج العطور على تصميم زجاجة عطر جديدة لها واختيار اسمه ونسى كل ذلك حتى فوجئ بموعد المؤتمر الصحفى الذى سيعلن فيه عن تصميمه . . وأحاط به المصورون بكاميراتهم وفلاشاتها وسألوه عن اسم العطر الجديد فنظر إلى كاميرات المصورين وقال لهم من وحى اللحظة : «فلاش » أى وميض فصرخ الصحفيون إعجابًا وسألوه عن شكل زجاجة العطر الجديد فأخذ من أحد المصورين لمبة فلاش محروقة «وبططها» قليلاً بيده ثم قال لهم : هكذا ! فتعالى الإعجاب والاستحسان ، وقبض دالى المبلغ المتفق عليه من الشركة ونزل العطر الجديد إلى الأسواق بهذا الاسم وبشكل فلاش الكاميرا !

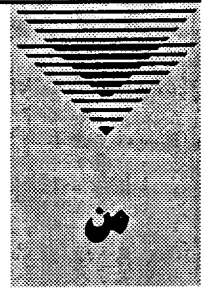
وقد كان العبقرى متدينًا بقدر ما كان متمردًا على كل شىء تقليدى ومألوف فى الحياة . .

وقد رسم وكتب وصمم وأبدع وهو فى رعاية زوجته «جالا» التى أحبها وأحبته وفهمت شخصيته كما لم يفهمه أحد فى حياته . .

وتفهمت كل أطواره الغريبة فكانت لا تجرؤ على الاقتراب من مرسمه وهو منشغل بالرسم حتى لا تشتت تركيزه وترسل له وهو يعمل رسائل حب ملتهبة من حين لآخر مع الخادمة وتدير نيابة عنه أعماله وحياته وكل شئونه المالية والأدبية والاجتماعية ويسلم لها بأنها أكثر حرصًا على مصلحته منه هو ، حتى ليصعب عليه تخيل الحياة بدونها ، وذات يوم كان على مائدة العشاء مع بعض الأصدقاء ودار حديث عن الموت ، فقالت جالا أنها لا تخشاه . . ولا يزعجها فيه إلا أن تتخيل صعوبة حياة دالى وحيداً بعدها ، فإذا الفنان العبقرى «المتنفش» ينفجر فى البكاء كالأطفال وكان حين دار هذا الحديث فوق الستين من عمره ، ولقد طال به العمر وتحقق ما خشيته جالا ذلك المساء فسبقته إلى العالم الآخر عام ١٩٨٢ ، فاختلت حياة دالى وزهد الدنيا وتكالبت عليه الأمراض وأصيب بالشلل الرعاش وفقد القدرة على الإمساك بفرشاة الرسم إلى أن مات بعد زوجته الحبيبة بسبع سنوات عن ٨٤ عامًا ، وخلَّف وراءه مئات إن لم تكن آلاف اللوحات الجميلة العبقرية التى تزين جدران المتاحف العالمية وبيوت هواة الفن الجميل . . فهل أدركت الفارق الحقيقى بين العبقرية . . والجنون ؟






أين جاء هذا الشاعر الشعبى المجهول بكل هذه الرقة والعذوبة والفهم العميق لحقائق الحياة ؟

ومن الذى ألهمة كل هذه الحكمة فعرف بفطرته أن السعادة ليست فى النهاية سوى فى راحة القلب وسكونه إلى من يحبّه من البشر . . ويحبونه ؟

لقد تغزّل فى حبيبه . . وتشكى من بعده عنه وتشوق إليه . . ثم رقَت مشاعره لكل البشر فاختتم قصيدته العامية بهذا الدعاء الإنسانى الجميل : يارب . . كل من له حبيب لم تحرمه منه !

فأى نفس محبة للبشر وأى قلب حكيم ؟

إنه يتعذب ببعد حبيبه عنه . . ويعرف لسعة الفراق ونار الحرمان ، ولا يريد لأحد غيره أن يكتوى بما يعانيه فيلخص لنا لغز السعادة كله

فى هذه الكلمات البسيطة االمعبرة ، ويقول لنا بغير فلسفة إن السعادة هى أن تحيا مع من تحب ويحبونك وألا تحرمك الأقدار منهم ولا من صحبتهم ومحبتهم واهتمامهم بأمرك !

لقد تمنيت حين سمعت هذا الموال الشعبى لأول مرة أن أعرف هذا الشاعر المجهول ، وأن أحييه على رقة مشاعره وصفاء نفسه وفهمه الصحيح للحياة ، فالسعادة حقًا وصدقًا ليست فى الثراء ولا فى النجاح العملى فى الحياة وحدهما وإنما أولاً وبعد كل شىء فى راحة القلب بين من يحبهم الإنسان ويحبونه ، أما باقى أهداف الحياة فهى تزيد أو تنقص من هذه السعادة الحقيقية لكنها أبدًا لا تعوض الإنسان عنها إذا افتقدها أو غابت عنه .

ومن قبل تمنيت أن أعرف مؤلف تلك الأغنية الشعبية التى كان يغنيها المطرب محمد العزبى منذ ثلاثين عامًا فى أحد استعراضات فرقة رضا للفنون الشعبية ، وكنا نضحك لها وقتها ونتندر بها لما فيها من خيال ومبالغة ، ثم علمتنا الأيام بالثمن المرير أن معانيها لا خيال فيها ولا مبالغة . . بل هى حقيقية وواقعية وبعيدة النظر أيضًا !

فقد كان محمد العزبى يغنى من كلمات هذا المؤلف المجهول :

- قالوا لى عَدِّى بحور الشوق . . عدِّيتها

- وقالوا لى هِدْ الجبال بإيديّا هدِّيتها

- وقالوا لى عِد النجوم . . بالواحدة عدِّيتها

- والمستحيلات من الأحلام . . شَدِّيتها
- وكل شدّة تهون بالحب شدتها
- وقالوا لى إنسىَ حبيبك قلت ما أقدرشى
- آهى دى اللى أصعب من الدنيا وقسوتها !

ومعه الحق والله هذا المؤلف الحكيم ، فما تصورناه خيالاً قد عرفنا بتجربة الأيام أنه حقيقة ، وعرفنا أن الإنسان قد يستطيع فى بعض الأحيان أن يهدم الجبال ويعبر البحار ويهزم المستحيل ، إذا صح العزم وصدقت النية ، لكنه لا يستطيع فى نفس الوقت أن ينسى بسهولة حبيبًا غاب عنه ، أو عزيزاً فقده . . أو غاليًا حرمته الأقدار منه !

لأنه إنسان . . ولأنه ضعيف أمام الألم وأمام فقد الأحبة والأعزاء .

«والأحبّة» فى هذا الموال وفى تلك الأغنية الشعبية ليسوا فقط فتاة القلب أو فتاه ، وإنما هم كل البشر الذين يحبهم الإنسان فى الحياة ويأنس بصحبتهم . . ويفتقدهم إذا غابوا عنه . . وتنقص بهجة الدنيا الشيء الكثير من حوله إذا حُرم منهم وهم أيضًا وكل من يهتف لهم القلب من أعماقه مع المطرب العراقى كاظم الساهر : سلامتك من الآه ! ويشعر بأن آهته تجرح صدره هو قبل أن تخرج من فمه .

ومنذ أسابيع أثار طالب جامعى شاب شجونى برسالة حزينة يروى لى فيها أنه نشأ يتيم الأب فلم تع ذاكرته الكثير عن أبيه الذى رحل عن

الدنيا وهو فى الرابعة من عمره ، لكنه وجد لدى أمه كل ما كان يحتاج إليه من حماية نفسية ورعاية وعطف فانتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى بلغ مرحلة الجامعة وهو يعيش مع أمه وحيدًا فى حين تزوج إخوته وانشغلوا عنه بدنياهم الخاصة ، ثم رحلت أمه فجأة عن الحياة قبل أن يتم دراسته الجامعية فأحس بمرارة اليتيم الحقيقى لأول مرة فى حياته مع أنه قد نشأ يتيم الأب منذ طفولته ، وشعر بأنه لم يعد له فى زحام البشر أحدٌ يهتم بأمره ويُعنى بصحته ويسعد لسعادته ، ويحزن لتعاسته ، فحاول أن يلتمس السلوى لدى أخوته الكبار ، فلم يجد لديهم ما يحتاج إليه من عطاء نفسى تشتد حاجته إليه ، فانطوى على نفسه وزهد كل شىء فى الحياة حتى كاد يعتذر عن عدم دخول الامتحان ، وقال لى فيما قال أنه يعجب لأمر زملائه فى الكلية الذين يتشكّون دائمًا مما يفرضه عليهم الآباء والأمهات من رقابة وقيود ، فيلومونهم على السهر خارج البيت لأوقات متأخرة ، ويحاسبونهم عن انشغالهم عن دروسهم . . ويتشممون ملابسهم خوفًا من أن يكونوا قد ابتُلوا بآفة التدخين . . إلخ ، فيسمع هو شكاواهم من هذه « القيود » وتلهفهم على حياة الحرية الخالية من كل رقابة عالية ، وهو يتحسر فى أعماقه على حاله ، ويقول لهم إنه يتمنى أن تسخو عليه الحياة ببعض هذه «القيود» التى يشكون منها ، لأنها تعنى أن هناك فى الحياة من يهتم بأمرهم ويطلب لهم الخير ، ويحاول حمايتهم من الضياع . . أما هو فيخرج من مسكنه الذى يعيش فيه وحيدًا فلا يسأله

أحد متى سترجع إلى البيت كما يسألونهم ، ويعود فى الليل فلا يسأله أحد لماذا تأخرت . . أو أين كنت . . ومع من أمضيت كل هذا الوقت ، ويزهد فى الذهاب إلى الكلية وفى المذاكرة ، فلا يسأله أحد لماذا لم تخرج إلى كليتك ، ولا لماذا لا تذاكر دروسك ؟ ، لأنه لم يعد له فى الوجود كله من يهتم بأمره سواه . . ولم يعد هناك من يتحمل مسئوليته عنه ، وهو يكره هذه «الحرية» التى يشتهيها زملاؤه من أعماق قلبه ويعرض أن يبادل زملاءه بها . . فينعم هو بحياة الأسرة وقيود الحب والإهتمام التى حُرم منها ، ويتنازل لهم عن حياة «الحرية» التى يطلبونها ، ويرون فيها بقصر نظرهم وغفلتهم أقصى المنى !

ثم يختتم رسالته لى طالبًا منى أن أبحث له عن «أسرة» تهتم بأمره وتفرض عليه هذه «القيود» الغالية وتسأله عن دروسه وتنهره إذا أهملها أو تراخى فيها أو تأخر فى السهر خارج البيت !

ولأننا نحن البشر قد جُبلنا على أن نشعر «بالمفقود» أكثر مما نشعر دائمًا «بالموجود» ، فلقد تفهمت جيداً عمق وحدته وغربته النفسية وإحساسه المؤلم بفقدان النصير وهوان الشأن ، بعد أن غابت عن دنياه من كانت تهتم بأمره ، ودعوته لمقابلتى فى مكتبى فجاءنى فى موعده ووجدت فيه شابًا صغيراً كسير النفس ، واستمعت إلى قصته ومتاعبه وحاولت قدر جهدى تهوينها عليه وتشجيعه على تحمل أقداره ، ثم

قدَّمته إلى عدد من الأسر الكريمة التى اتصلت بى عقب نشر رسالته وطلبت منى أن يتصل بها ، لكى يصبح فردًا من أفرادها ، يهتمون بأمره ويحثونه على مواصلة دراسته ، ويبعدون عنه شبح الوحدة والاكتئاب . وتم الاتصال بهذه الأسر من مكتبى فرحبت به ودعته لزيارتها وتعهد أكثر من أب فاضل لأبناء فى مثل سنه بأن يعتبره واحدًا من أبنائه ويتابع معه دراسته ويشجعه على استكمالها ، ووعدته أكثر من أم فاضلة بهديه كبيرة إذا اجتاز امتحان هذا العام بنجاح !

وتذكرت وأنا أستمع إليه ، حالى حين سافرت من مدينتى الصغيرة بالأقاليم إلى القاهرة لالتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة وأقمت فى مسكن بالقرب من الجامعة ، وغادرنى شقيقى الأكبر بعد أن اطمأن على استقرارى فى سكنى عائدًا إلى مدينتنا ، فوجدت نفسى فجأة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى أعيش وحيدًا تمامًا فى المدينة الصاخبة ، وأتمتع بكامل حريتى فى الدخول والخروج من البيت والسهر فى الخارج إلى أى وقت أشاء دون أن ينتظرنى أحد ليسألنى أين كنت ، أو ينهرنى لتأخرى عن التاسعة مساء فى الخارج لبضع دقائق أو يتحرّى التزامى بالسلوك القويم داخل البيت وخارجه فلم تمض أيام قليلة على هذه «الحرية الكاملة» التى تمنيتها من قبل وأنا طالب بالمرحلة الثانوية ، حتى وجدتنى أضيق بها تمامًا ، وأشعر بحنين جارف إلى حياة الأسرة الدافئة ، وأفتقد كل شيء فيها حتى ما ضقت به من قبل كقيود عدم السهر فى الخارج ، ومضت علىّ أيام «الحرية»

بطيئة ومملة وقاتلة ، ثم تركت كل شيء فجأة بعد ٢٠ يومًا بالضبط وحملت حقيبتى وركبت القطار لمسافة ١٨٠ كيلو مترًا عائدًا إلى بيت الأسرة ، وفوجئ بى أبى يرحمه الله داخلاً عليه غرفة نومه وقت الأصيل فاتحًا ذراعى كأنما قد غبت عنه فى «المهجر» ٢٠ عامًا وليس ٢٠ يومًا ، ودُهش أبى لمرآى لأول وهلة لكنه لم تغب عنه دوافعى النفسية لهذه العودة السريعة ، فضحك طويلاً ورحب بى بحرارة وسألنى عن أحوالى فى الكلية وفى المسكن وأجبته بأن كل شيء على ما يرام لكننى قد جئتُ فى « زيارة » عادية لأسرتى ! وأقمت بين عائلتى أسبوعًا « استمتعت » فيه بالقيود التى ضقت بها من قبل حمقًا ، وجهالة منى . . وتثاقلت فى العودة للقاهرة الصاخبة التى كنت أحلم من قبل بالحياة وسط أضوائها ومغرياتها ، وأبى يشفق علىّ من أن يحثنى على العودة لدراستى وكليتى ، وينهى أمى كما علمت فيما بعد عن أن تطلب منى هذه العودة حتى لا تفوتنى أيام الدراسة ، إلى أن ارتويت من نبع عطاء الأبوين لأبنائهم ودفء علاقة الإخوة واالشقيقات ، ثم حزمت أمرى أخيرًا وقررت العودة للقاهرة فودعنى أبى وهو يرجونى أن أحاول الصمود لحياة الوحدة فترة أطول حتى لا أنقطع فترات طويلة عن الكلية ، ووعدته بذلك وأنا أقول لنفسى : آه لو تعلم كم كانت هذه الأسابيع الثلاثة التى ابتعدت فيها عنكم ثقيلة وقاسية حتى كنت أعدّ الأيام الباقية على اكتمالها لأرجع إليكم .

ثم اعتدت بعد ذلك حياة الوحدة شيئًا فشيئًا حتى ألفتها وألفتنى ، وأصبحت لا أرجع لأسرتى إلا كل شهر مرة ثم كل شَهرين .َ . لكن إحساسى بإنتمائى لأسرتى ظل دائمًا قائمًا وقويًا ، ثم بدأت أولى خطواتى فى التدريب على الصحافة بمجلة روز اليوسف وأنا مازلت طالبًا بالسنة الأولى بقسم الصحافة بكلية الآداب ، واحتجت ذات مرة للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية لمدة يومين لإعداد تحقيق صحفى فى الميناء ، فوجدتنى بتلقائية اتصل بأبى تليفونيًا لأستأذنه فى هذا السفر ، مع أنى أعيش على بعد ١٨٠ كليو متراً منه ولو سافرت للإسكندرية ورجعت لما علم بسفرى ولا برجوعى ، لكنه الإحساس بوجود « الأب » فى حياة الإنسان حتى ولو كان بعيداً والإحساس بوجود المرجعية التى ينبغى أن يرجع إليها الابن فى شئونه الهامة واختياراته المصيرية فى الحياة ، وهذه « المرجعية » هى المظلة التى يستظل بها الأبناء فى حياة آبائهم وأمهاتهم ، فتحميهم من عوادى الدنيا وتجنبهم الكثير من العثرات وتيسر لهم الكثير من الصعاب فمن عجب إذن أن يضيق بها البعض أو يتسخّطوا عليها ، وعلى ما تمثله فى أذهانهم غير الواعية من قيود أو تسلط ! إنها «عز» البنوّة لآباء وأمهات يهتمون بأمر أبنائهم ويطلبون لهم السعادة والأمان فى الحياة ويتحملون عنهم مسئوليتهم التى اكتشف هذا الشاب كاتب الرسالة كم هى ثقيلة حين وجد نفسه مضطراً لتحملها وحده ، لكنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ،ولا يعرف لهذا «العز» قدره الحقيقى إلا من يُحرم منه ، كما حرم منه هذا الشاب وكما حرم منه كثيرون غيره

أعفتهم الأقدار من هذه «القيود» . . وكمثلى أنا أيضًا حين فقدت أبى وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى وكنت قد تخرجت فى كليتى وبدأت العمل فى « الأهرام » فشعرت كما شعر هذا الشاب بأن المظلة التى كانت تحمينى من صواعق السماء قد رفعت عنى فجأة وأصبح أمرى لا يهم أحدًا فى الوجود كله سواى . . سافرت أم أقمت؟ نجحت فى الحياة أم فشلت . . سعدت أم شقيت . . طعمت . . أم زهدت الطعام .

أما « قيود » الآباء والأمهات التى يضيق بها بعض الأبناء بطرا وغفلة ، وأما حياة الحرية الخالية من كل قيد التى يحلم بها أمثالهم فآه لو أدركوا معناها الحقيقى ، وفهموه حق فهمه إذن لعرفوا أنهم إنما يحلمون بأن يتنازلوا عن « عز » اهتمام الآباء والأمهات بهم ، ويطلبون لأنفسهم بؤس المحرومين من هذه النعمة الجليلة الذين فقدوا من كانوا يقدمون إليهم الحب والعطاء والرعاية والاهتمام على طبق من فضة وبلا غرض سوى إسعادهم وخيرهم وصلاح أمرْهم .

أما « الحرية » التى يحلمون بها . . فمتى سعدت بها كلاب الطريق التى لا يسألها أحد عما تفعل ولا يُعنى بها أحد . . ولا يهتم بأمرها أحد ؟ .

إنها أيضًا تحيا بلا رقابة ولا قيود . . وتهيم على وجهها أنّى شاءت ولا يحاسبها أحد عن شىء . . ولا تجد من يقول لها حين تتأوه :

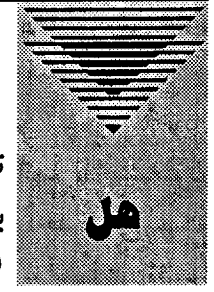
سلامتك من الآه ! كما يفعل الآباء والأمهات مع أبنائهم قولاً وعملاً . . وسراً وعلانية .

فمن ذا الذى يرفض كرامة الآدمية ، ويطلب مهانة حياة الكلاب الضالة التى لا رقابة عليها ولا قيود !

ومن ذا الذى يسمع هتاف هذا الشاعر الشعبى المجهول ودعاءه إلى الله بألا يحرم أحداً من حبيبه ولا من رعايته له واهتمامه بأمره ، ثم لا يردد وراءه صادقًا : آمين يارب العالمين ؟







هل تريد مثالاً آخر «لنعيم» الحرية الكاملة التى يحلم بها بعض الأبناء فى سن الشباب بعيداً عن الأهل «وقيود» الأسرة وضوابطها ؟

لقد كنت مثلهم كما حدثتك فى المقال السابق أضيقُ وأنا طالب بالمدرسة الثانوية بقيود عدم السهر خارج البيت بعد التاسعة مساءً وبمراقبة الأهل لسلوكى وحرصهم على التزامى بالطريق القويم ، وأتصور أننى حين أرحل للقاهرة لألتحق بجامعتها وأعيش فيها وحيداً حراً من كل القيود ، سوف تكون حياتى بها نعيماً استمتع فيه بحريتى الكاملة بلا قيود ولا ضوابط إلا ما يمليه علىّ ضميرى وإحساسى بالواجب . . أذهب للجامعة أو لا أذهب . . أنام متأخراً أو مبكراً . . أستذكر دروسى أو لا أستذكرها . . أخرج للسهر فى وسط المدينة أو أقبع فى سكنى لأقرأ فى هدوء ، ولقد استمتعت

بوحدتى وحريتى الكاملة بالفعل حين التحقت بالجامعة ووجدت نفسى أعيش «حراً» كالطائر الطليق ، لكن هذا الاستمتاع لم يطل أكثر من أسابيع قليلة وحنَنَتُ بعدها إلى كل ما ضقتُ به من قبل ، وبعد عامين من التنقل بين البانسيونات الصغيرة ، اَستقريت فى شقة صغيرة من غرفتين بحى المنيل القريب من الجامعة وانتظمت فى العمل الصحفى بالأهرام إلى جانب دراستى بكلية الآداب ، فإذا بوطأة هذا «النعيم» الذى حلمت به من قبل تشتد علىّ أكثر وتؤثر حتى على قدراتى فى العمل وفرصتى فى المنافسة الصحفية بينى وبين زملاء المهنة ! وكان ذلك منطقيًا إلى حد كبير فزملائى من شباب الأهرام وقتها يقيمون مع أسرهم التى ترعاهم وتنظّم لهم حياتهم فلا ينشغلون إلا بالعمل والتنافس فيه ، فى حين أعيش أنا وحيداً وأجد نفسى لست فقط مسئولاً عن التفوّق فى العمل والدراسة ، وإنما أيضًا عن تدبير شئون حياتى الخاصة وحدى فيستهلك جانب «الخدمات» الأساسية التى لا يكاد يشعر به الزملاء «المقيدون» بقيود الأهل ، جزءاً كبيراً من طاقتى الجسمانية والنفسية ، فحتى أبسط مظاهر هذه «الخدمات» التى يتلقّاها من كانوا يشكون من قيود الأسرة كان يشكل بالنسبة لى مشكلة عويصة يمكن أن تؤثّرعلى عملى ونجاحى فيه ، « كخدمة » الإيقاظ من النوم على سبيل المثال ! . وعلى حين كان « التعساء » بقيود الأهل من الزملاء يجدون من يوقظهم من نومهم كل صباح فى وقت مناسب للذهاب للعمل ويظلون إلى جوار فراشهم ليعيدوا عليهم الكرَّة مرة بعد أخرى برفق وحنان حتى يتنبهوا ، كنت أستجدى أنا عم سيد

« مكوجى الكواكب » الذى كان يبدو لى وقتها حلالاً لأصعب المشكلات ، أن يرسل أحد صبيانه فى الثامنة كل صباح ليطرق باب سكنى ويظل واقفًا أمامه حتى أفتح له الباب ، وإلا تأخرت عن العمل . . أو استغرقنى النوم حتى الظهيرة ، فقد كنت أسمع صوت المنبه وأعود للنوم من جديد بتأثير الإجهاد فإذا لم ينبهنى أحد ضاع منى يوم العمل . . وتعرضت للمساءلة من رؤسائى ! .

وبينما كان «المعذَّبون» بالقيود يجدون الشاى الساخن والإفطار الشهى فى انتظارهم بعد أن ينهضوا من فراشهم على أيدى أمهاتهم كنت أفتح أنا الباب للصبى المنقذ ثم أهرول لارتداء ملابسى على عجل ويا ويلتى إذا نسى عم سيد ذات صباح إرسال صبيه إلىّ ، أو إذا تأخر هو نفسه فى فتح دكانه ، أو إذا تراخى فى غسل ثيابى وكيِّها ، ثم أغادر مسكنى بلا شاى ولا إفطار لأصل إلى العمل فى الموعد الملائم ، أما الشاى والإفطار فلسوف أتناولهما خطفًا فى العمل ، وأما ذقنى التى لم أجد وقتًا لحلاقتها فلسوف أنتهز فرصة دقائق خالية بعد إثبات موعد حضورى ، وأتسلل إلى أقرب محل حلاقة لأحلقها فيه اختصاراً للوقت والجهد ، وأما يومى كله بعد ذلك فلسوف أقضيه فى العمل من الصباح وحتى العاشرة ليلاً أو حتى منتصف الليل فى بعض الأحيان كشوط واحد متصل بلا راحة . . ولا قيلولة . . ولا عودة لدفء الأسرة لبضع ساعة فى الظهيرة ، فأصل إلى نهاية اليوم وقد تهدّلت ملابسى واتّسخت ياقة قميصى ، وظهرت آثار الإعياء والإجهاد واضحةً على وجهى ،

وفقدتُ معظم حيويتى فى حين يرجع «المعذبون» بقيود الأهل إلى بيوتهم فى الظهيرة فيغتسلون من غبار الطريق ويتناولون طعام الغذاء الذى ينتظرهم بلا عناء ، ويستريحون فى الفراش لبعض الوقت ثم يبدِّلون ملابسهم ويعودون فى المساء للعمل متألِّقى الوجوه بدماء الراحة وعناية الأهل واهتمامهم .

وحين سألنى أحدهم ذات يوم ملاحظًا إعيائى وأننى لا أكاد أفارق الأهرام حتى فى أوقات خلوى من العمل ، لماذا لا ترجع بيتك كل يوم وتستريح بعض الوقت لتستطيع الاحتفاظ بنشاطك فى المساء ، أجبته بلا وعى : ولمن أرجع إليه فى النهار ، وأنا أضيق أصلاً بوحدتى فيه فى الليل ؟

ومضت حياتى على هذا النحو بضع سنوات أخرج فى الصباح فى موعد مناسب إذا تذكرنى عم سيد ، أو متأخراً عن موعدى إذا نسانى ، وأرجع للمسكن الخالى فى الواحدة أو الثانية صباحًا ، فإذا رجعت لم يسألنى أحد لماذا عدت ، وإذا غبت عنه بالأيام لم يسألنى أحد أين كنت ؟

وقد تباعدت المسافات تدريجيًا بينى وبين أسرتى التى تقيم فى مدينتى الصغيرة فلم أعد أجد الفرصة المناسبة لزيارتهم إلا كل شهرين مرة وإن كانت الاتصالات التليفونية بيننا مستمرة فى مواعيد منتظمة ، ومن حين لآخر تتحفنى أمى بطرد من الطعام الساخن الذى يحمله لى أحد القادمين للقاهرة فى زيارة تجارية أو عائلية فأدعو إليه الزملاء

والأصدقاء ويعوضني عن رداءه طعام المطاعم الصغيرة لبعض الوقت ، إلى أن أديت امتحان الليسانس ، وفرغت من همّ الدراسة ، وحلمتُ بالتفرغ التام للعمل الصحفى والمنافسة الساخنة بين زملاء البداية الواحدة فيه .

وأقبلتُ على عملى بالأهرام بحماس شديد لأعوض انقطاعى عنه خلال فترة الامتحان ، فلم تمض أيام على عودتى حتى بدأت أشعر بإعياء شديد وصداع شبه دائم وفسرتً ذلك بتأثرى بما بذلت من جهد خلال أيام الامتحان التى كنت أصل الليل بالنهار فيها بلا انقطاع لأضمن النجاح وواصلت إقبالى على عملى بغير التفات لما أعانى منه من إجهاد ، فلاحظت بعد أيام أخرى أن إعيائى يزداد . . وصداعى لا يفارقنى . . وشيئًا جديدًا من الغثيان يعترينى ، «فأدركت» أننى قد أُصبت بنوبة برد عارضة ، ولم أكن أضيق بشىء كما أضيق بنوبات البرد والأنفلونزا ، لأنها تفقدنى قدرتى على العمل فعالجت نفسى بأدوية البرد وترقبت الشفاء بصبر نافد ، فلم تتحسن حالتى وإنما ازدادت سوءًا وفقدت شهيتى نهائيًا للطعام ، ولم يعد يستقر شىء منه فى معدتى ، وكدت ألا أقوى على المشى ، ومع ذلك فأنا مستمر فى الذهاب إلى العمل ومقابلة المسئولين الذين أجرى تحقيقاتى الصحفية معهم ، وكتابة التحقيقات فى مبنى الأهرام القديم حتى الثانية صباحًا كل يوم وبغير أن أتناول إلا أقل القليل من الطعام ، وإذا تناولت شيئًا منه لم يستقر فى معدتى لدقائق ، وأنا أتعجب لحالى ، ولا أجد تفسيرًا لما أعانيه ، وليس حولى من يلاحظ أى تغيرات ملفتة للنظر فى حالتى

الصحية فينزعج لها كما يفعل الأهل مع أبنائهم ، لأن هذا امتياز لا «يعانى» منه إلا «المعذبون» بقيود الأسرة والأهل !

ولأن الأمر كذلك فلقد ظللت تسعة أيام كاملة وأنا أعانى من الإعياء الشديد والغثيان وارتفاع درجة الحرارة الذى يصل إلى حد «الحمى» بغير أن أستشعر خطورة ما أعانى منه ، ولا أدرك حقيقته إلى أن نهضت من نومى ذات صباح فوجدت ساقىَّ لا تقويان على حملى ووجدتنى لا أستطيع ارتداء ملابسى للذهاب للعمل فقررت فى هذه اللحظة فقط أن أتعامل مع حالتى بشىء من الاهتمام وأن أعرض نفسى على الطبيب ! وأمضيت الوقت مستلقيًا فى فراشى أتردد بين التنبه والغيبوبة بتأثير الحرارة فى انتظار مواعيد عيادات الأطباء فى المساء بغير أن أتناول طعامًا ولا شرابًا ثم تحاملت على نفسى فى النهاية وارتديت ملابسى ومشيت ببطء شديد إلى عيادة طبية قريبة من مسكنى . وانتظرت دورى فى الدخول إلى الطبيب بفارغ الصبر ، وفحصنى الطبيب الذى كان معروفًا وقتها بأنه يعالج عبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب ، ثم رجع إلى مكتبه وسألنى سؤالاً بدا لى وقتها غريبًا على مسامعى إذ قال لى : من معك الآن من أهلك فى قاعة الانتظار لكى أتحدث معه عن نظام التغذية خلال فترة العلاج ؟ فأجبته بعفوية بأنه لا أحد معى وبأننى قد جئت وحدى للعيادة ، فلم يستوعب ما قلته له للوهلة الأولى ، وسألنى ولماذا لم يجئ معك أحد من أهلك وأنت فى هذه الحال ؟ فأجبته بأن أهلى يعيشون فى مدينة

أخرى وأننى أعيش وحيداً فى مسكن قريب من العيادة ؟ فكرر على السؤال متعجبًا : وحدك . . وحدك بلا أى أحد من أسرتك ؟ فأجبته بالإيجاب ، فنظر إلى صامتًا للحظات ثم قال لى إنه لابد لى من دخولى المستشفى على الفور ليس فقط لأن حالتى تستدعى ذلك ، وإنما أيضًا لأنه كطبيب لا يستطيع أن يسمح لى بالانصراف من العيادة الآن بعد أن علم بأننى أعيش وحيداً ولن أستطيع رعاية نفسى فى مرضى ولا تنفيذ النظام الغذائى المطلوب خلال فترة العلاج .

وانزعجت للفكرة بشدة ورجوته بإلحاح أن يعدل عنها ويسمح لى بالتداوى فى مسكنى مع تأكيدى له أننى سألتزم بكل تعليماته . فتردد فى الموافقة طويلاً ثم قال لى بحزم : لا أستطيع السماح لك بذلك إلا إذا دعوتَ بعض أهلك للإقامة معك لرعايتك خلال مرضك فهل تعدنى بذلك وتعطينى كلمة شرف بتنفيذه ؟ ووعدته بما أراد وأنا أعرف فى قرارة نفسى أننى لن أتصل بأهلى ولن أزعجهم بمرضى ولا بطلب مجيء أحد أفراد أسرتى للإقامة معى فى هذه الظروف ولا تَسلْنى لماذا لم أفكر فى ذلك وقد كان ضرورة تمليها الظروف وليست ترفًا أملك رفضه ، فكل إنسان سجين طبعه فى النهاية وقد كان من طبعى وأظنه مازال كذلك أن أتكتم معاناتى الشخصية حتى عن أقرب الناس لى مشفقًا عليهم من إزعاجهم بمتاعبى ، وهكذا عدت إلى مسكنى وأنا أفكر فيما أستطيع أن أفعله لتنفيذ تعلميات العلاج والغذاء ، ولم يكن يؤرقنى تناول الدواء فى

مواعيده الدقيقة بقدر ما كان يؤرقنى ذلك النظام الغذائى الغريب الذى حدده لى الطبيب فقطعت الطريق مهمومًا وأنا أتساءل . . وأنّى لى أن ألازم الفراش أسبوعين كاملين أعيش خلالهما علىّ العصائر الطازجة وحدها ، وليس حولى من يعدّها ويقدمها لى فى فراشى بدون أن أتحرك أدنى حركة كما طلب منى هذا الطبيب المتفائل ، وكيف لى «بكَبد» دجاجة مسلوقة واحدة لتكون طعام غذائى الوحيد بعد بداية العـلاج بثلاثة أيام ومن يطهوها ليقدم لى كَبدها وحده ويلقى بالدجاجة نفسها فى صندوق القمامة أو يتناولها هو بالهناء والشفاء ؟!

ولم أكن فى حاجة لأن أدرك أننى سوف أعيش طوال هذين الأسبوعين على السوائل المتاحة والتى يوفرها لى البواب كلما عثرت عليه ، أو تحاملت على نفسى وغادرت شقتى وأنا الممنوع من الحركة لأناديه وأطلب منه ذلك ، وأن هذه السوائل لن تعدو غالبًا زجاجات المياة الغازية والماء الصرف من الصنبور ، لأن العصائر تحتاج إلى جهد فى تحضيرها ؛ ولأن معلباتها لم تكن شائعة ولا منتشرة فى المحلات كما هو الحال الآن ، فرجعت إلى بيتى ومعى بعض زجاجات الكوكاكولا . ولم أجد البواب فى موضعه المختار لأرجوه أن يشترى لى المزيد منها ، وتعلق أملى بصبى المكوجى الذى سيطرق بابى فى الصباح . . وخلعت ملابسى بصعوبة وتناولت حبات الدواء . . ثم تهالكت فى فراشى ، ودخلت فيما يبدو فى غيبوبة الحمى فلم أدر بما حولى ولا بما مر بى من الوقت ، حتى تنبهت فجأة على طرقات عنيفة

على باب مسكنى فأصبحت مشكلة حياتى فى هذه اللحظة هى كيف أقطع المسافة من فراشى إلى باب الشقة ثم بلغته فى النهاية ، فإذا بى أرى أمامى آخر إنسان أتوقع أن يزورنى فى مسكنى وهو خالٌ لى كان يقيم يرحمه الله فى ضاحية مصر الجديدة ويعمل بالتعليم ، وكنت أزوره كل بضعة أسابيع لكنه لكم يكن معتاداً على زيارتى فى بيتى لأننى خارجه على الدوام وقد قادته الصدفة البحتة ذلك اليوم لزيارتى حين وجد نفسه قريبًا من مسكنى فى طريق عودته من درس خصوصى لبعض طلبة الثانوية العامة ، فقرر أن يمر بى ليسألنى عمًا أخَّرنى عن زيارته طوال الأسابيع الماضية ! وكاد بعد أن طرق الباب بضع مرات بلا استجابة أن يرجع من حيث جاء لولا أن أبلغه المكوجى بأنه قد رآنى داخلاً العمارة قبل ساعات ، ويبدو أن إعيائى كان ملفتًا للنظر فسألنى على الفور عما بى ، فوجدت نفسى أجيبه بأنها نوبة برد بسيطة وسوف تذهب لحالها ! وكان من الممكن أن ينخدع خالى بما حاولت إيهامه به ، لولا أن أرادت مشيئة الله غير ذلك فتشكك فيما أقول حين رآنى لا أقوى على الجلوس أمامه وأنا غارق فى بحر من العرق ، ووجهى شديد الاصفرار ، فإذا به ينهض فجأة ويطلب منى فى حزم غريب جمع ملابسى لأنه سيصطحبنى معه إلى بيته ! وحاولت الاعتذار عن ذلك بكل الطرق فلم يستجب لرجائى ولم يقبل أن يتركنى فى مسكنى مع وعد منى بالالتزام بالراحة والعلاج ، وراح يجمع ملابسى عنوة ويضعها فى حقيبة صغيرة ويساعدنى على

النهـوض من مـقـعـدى ثـم نقلنى بسيـارته وبملابس النوم التى كنت أرتديهـا إلى مـصـر الجـديدة ، وخلال الطريق أجبتـه وأنا بين اليـقظة والنوم على أسئلتـه عن بداية المرض فـعـرف أننى أعـانى منه منذ ١٠ أيام، ولكنى لـم أنقطع عن العـمل ولم أستشر الطبيب إلا ذلك اليوم إلى أن بلغنا مسكنه فلم أكد أدخله حتى اتجهت إلى الفراش واستلقيت عليه بدعوى أننى سأستريح بعض الوقت فما أن فعلت حتى غبت عن الوجود كله ، وفتحت عينى ظهر اليوم التالى ففوجئت بوجود أمى إلى جوار فراشى . ومعها بعض أهلى ، وتعجبت متى جاءت وكيف قطعت المسافة الطويلة بين بلدتى والقاهرة بهذه السرعة وتحملت من عتاب الأهل الكثير لإخفائى نبأ مرضى عنهم ولمعارضتى فى الانتقال إلى مسكن خالى ، ولم تمَض ساعة حتى عادنى فى الفراش طبيب آخر أخضعنى لاستجواب دقيق عن بداية الأعراض وتطورها ولم يخف دهشته لإهمالى لنفسى وصحتى ، إلى حد أن أعمل ١٢ ساعة كل يوم لمدة تسعـة أيام وأنا أعانى أصلاً من أعـراض مرض التـيفـود القـاتل وبغـير أن أتنبه لخطورة الحال ، مما لا يليق بشـاب جامـعى «مثقف» مثلى كما قال ، ثم أصدر أوامره لى بعدم مغادرة الفراش لمدة ١٥ يومًا كاملة وصدعت بأوامره ضعفًا وعجزاً ولازمت الفراش بلا حراك طوال هذه الفترة ، وامتنعت عن الطعام كله ما عدا السوائل ثم سمح لى بعد ثلاثة أيام بتناول قطعة واحدة من كبد الدجاج لا تشبع طائراً صغيراً ، ففقدت ١١ كيلو جرامًا من وزنى خلال فترة مرضى .

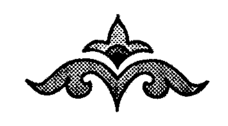
وظهرت نتيجة الليسانس وأنا طريح الفراش فسعدت بنجاحى وانتهاء مرحلة الدراسة من حياتى رغم ضعفى ووهنى . وشعرت رغم كل شىء بامتنان شديد «للقيود» الأهل ولرعايتهم واهتمامهم بأمرى على الأصح حين أتيح لى بعض ذلك خلال فترة مرضى ، ولولاه لكنت قد عجزت عن الالتزام بتعليمات العلاج والغذاء ولكنتَ قد أمضيت فترة المرض وحيداً فى مسكنى ، كما شعرت بامتنان أكبر للأقدار التى ساقت إلىّ خالى فى هذه الزيارة غير المتوقعة ، وله هو أيضًا لإصراره على أن يفرض علىَّ «قيدًا» من هذه القيود الحبيبة حين تمسّك بنقلى لمسكنه .

أما سؤال الطبيب لى مستنكراً : كيف لم أتنبه إلى أن ما طرأ على حالتى الصحية من تغيرات كان يستدعى الاهتمام منذ اليوم الأول وليس بعد ١٠ أيام كما فعلت ، فلم أستطع وقتها وأنا فى سن العشرين أن أقدم له رداً مقنعًا ، أما الآن وبعد أكثر من ثلاثين عامًا من هذه القصة وبعد أن علمتنى خبرة الأيام والسنين ما لم أكن أعرفه ، فإنى أستطيع أن أفسر لهذا الطبيب الآن لماذا لم أكتشف خطورة مرضى فى الوقت المناسب ذلك أن الإنسان لا يرى نفسه إلا إذا نظرنا فى المرآة . . ولأن الأهل والأحبَّاء وشركاء الحياة الذين يعيش الإنسان بينهم هم مرآته التى يرى فيها نفسه ، ويكتشف أية متغيرات قد تطرأ عليه ، فيعرف من خلالهم إذا كان قد زاد وزنه أم نقص ، وإذا كانت روحه قد تغيرت أم بقيت على حالها . . وإذا كان وجهه

شاحبًا اليوم أم يتفجَّر بدماء الصحة. أما هو فلو ترك لنفسه فلن يدرك ذلك إلا بعد وقت ربما تكون الأعراض قد تفاقمت خلالها كما حدث لى وقتها ، فالأهل يا صديقى «يهتمون» ولهذا فهم «يلاحظون» و«ينزعجون» . . وينبهون المرء إلى خطورة ما يطرأ عليه من أحوال إذا كان غافلاً عنها ، ولقد كنت فى ذلك الوقت أعيش بعيدًا عن أهلى وسط بشر « ليس لى فى زحامهم أحد » كما يقول الشاعر ، لهذا لم ينتبه أحد لمرضى وينبهنى إليه . . أو لم يأبه لى أحد بمعنى أصح لأن أمرى لم يكن يهمّ أحدًا سواى ، ولا لوم ولا عتاب على أحد فالأهل الذين كنا نشكو من قيودهم هم وحدهم الذين يقولون لنا قبل أن ننطق بها : سلامتك من الآه !

وليس من الحكمة ولا من العدل أن يتوقع المرء من الغرباء أن يقدموا له ما لا يقدر على أن يقدمه له إلا الأهل والأعزاء والأحباء .

ولقد شكونا ونحن فى سن الصبا من قيود اهتمامهم بنا ومغالاتهم فى الحرص علينا ، وحلمنا بحياة الحرية الكاملة بغير قيودهم فعلّمتنا تجربة السنين أننا إنما كنا فى حقيقة الأمر نشكو الحب والحنان . . ونحلم بحياة الكلاب المشردة فى الطرقات !



# ثرثرة صيفية !

جاء الصيف . . واستسلم الذهن للخمول ، فلا تتوقع مني حديثًا مفيدًا ولا حتى «مفهومًا» حتى بداية الخريف ! لاحظت مع تقدم العمر أن قدرتي على العمل الذهني الجاد تتراجع إلى أدنى مستوياتها في ذروة الصيف مع اشتداد الحر ، في حين كان عنفوان الشباب عندي لا يفرق بين حر وبرد ولا بين صيف أو خريف ، فسبحان من يغير ولا يتغير . . ولا مفر إذن من الاعتراف ببصمات السنين والإقتناع ولو بعد فوات الأوان بأهمية الاسترخاء في إجازة صيفية كافية لتجديد النشاط واستعادة الحيوية . من بداية الصيف وأنا أحاول إقناع صديقي الأديب أحمد بهجت «رهين المحبسين» الجديد بعد أبي العلاء المعري ، بمصاحبتي في إجازة قصيرة إلى شاطئ الاسكندرية ، فيشاركني الأمنية الغالية ثم يستمهلني أيامًا قليلة حتى يجري جراحة فتاق صغيرة يحتاج إليها

ويصاحبنى بعدها فى السفر ، فلا هو يجرى الجراحة التى لا تستغرق دقائق معدودة ويستريح من آلامه ولا هو يدعنى للسفر يائسًا منه ومن صحبته ! أما صديقى الأديب يوسف عوف فلا يتبع إلا هواه ولا تؤثر فيه صداقة ولا عشرة سنين ، فإن كان له ارتباط بعمل فى الإسكندرية فى الصيف سافر إليها وراح يتصل بى من هناك كل يوم طالبًا اللحاق به لأن لبدنى علىّ حقًا . . ولأننا نحتاج إلى الإجازة فى الصيف لرفع المعنويات وتجديد النشاط ، أما إن لم يكن له ارتباط هناك فلسوف تفشل معه كل الحيل لتذكيره «بفلسفته» الصيفية الحكيمة هذه وسوف تتوالى اعتذاراته بشتى الأعذار ! فمن لى بأصدقاء يستجيبون لدواعى الصداقة والحكمة أكثر مما يستجيبون لدواعى الكسل وقلة الحركة والالتصاق بالمكان حتى ولو اشتكوا منه !

صديقى «رهين المحبسين» أحمد بهجت . . ومحبسه الأول شقته بمصر الجديدة التى لا يكاد يغادرها ، ومحبسه الثانى غرفة مكتبه بها والتى يمضى بها أكثر من نصف عمره ، يكتفى وهو السباح القديم من أحلام السباحة السابقة فى مياة البحر ، بارتداء الشورت أو المايوه فى البيت من مطلع الصيف حتى مقدم الخريف ، فيذكرنى ببطل مسرحية «البطة البرية» للكاتب النرويجى هنريك إبسن الذى كان يحلم بأن يكون صيادًا عظيمًا يصيد الوحوش والطيور البرية فى الغابة ، فانتهى به الحال لأن يربى بعض البط فى غرفة من غرف بيته ثم يدخل عليها حاملاً بندقيته ويصيدها ويخرج منتعشًا بإحساس الصياد الكبير ! تمامًا

كما يسير أحمد بهجت بالشورت فى أنحاء شقته منتشيًا بإحساس السباح الخطير . . ولا بحر ولا سباحة ولا رمال !

اختتمت موسمى الثقافى هذا الصيف بقراءة كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل الخطير عن «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» وشعرت بعد انتهائى منه أننى لم أعد صالحًا للقراءة الجادة المجهدة للذهن قبل أولى نسمات الخريف فى بداية سبتمبر ، أما متعتى الذهنية خلال الأسابيع الباقية فلسوف أجدها غالبًا فى إعادة قراءة بعض ما سبق لى أن قرأته وأحببته من أعمال أدبية وتاريخية كما أفعل دائمًا فى هذا الوقت من كل سنة !

اعتاد الأستاذ هيكل - فضلاً منه وكرمًا - أن يهدينى كل كتبه الجديدة كما يفعل مع معظم أصدقائه وتلاميذه وزملائه السابقين ، لكنه مازال يصر علي اعتبارى «شابًا» بعد كل هذه السنين ، فيكتب لى كلمات الإهداء بخطه الدقيق المميز هكذا : إلى الصديق فلان . . إلى جيل الشباب ! ثم يوقع بإمضائه الشهير ! فابتسم كلما قرأتُ هذا الإهداء «المعبر» وأتحسس الشعيرات البيضاء فى رأسى وأقول لنفسى . . يا إلهى . . لم يتغير «الأستاذ» أبدًا بعد كل هذه السنين ولم تتغير نظرته لنا نحن جيل المحررين «الشبان» الذين فتح لهم أبواب العمل فى الأهرام منذ أكثر من ثلاثين سنة ، فكانوا وقتها «جيل الشباب» بين شيوخ الأهرام ومحرريه القدامى ، فماذا عساه أن يقول لو رآنا بين هذه الأمواج المتلاطمة من شباب الأهرام الحاليين وهم

يعتبروننا الآن جيل الشيوخ من أبناء المدرسة القديمة ! ولكن لا عجب فى ذلك ولا غرابة فمياه النهر تتجدد باستمرار ومن كان «جديدًا» و«مجددًا» فى زمانه قد يصبح الآن «محافظًا» و«تقليديًا» فى أنظار من يأتون بعده وهذه هى سنة الحياة التى يضطرد تقدمها للأمام دائمًا فى اتجاه مثلها الأعلى من خلال تفاعل القديم مع الجديد بل ومن خلال صراعهما أيضًا فى بعض الأحيان .

حين يستسلم الذهن للخمول . . أجد زادى الفكرى فى اجترار بعض قراءاتى القديمة ، تمامًا كما تفعل الفرق المسرحية العتيدة حين تعيد تقديم بعض عروضها السابقة كل صيف وتسمى عروضها هذه «بالريبريتوار» ومن «ريبريتوار» الصيف عندى هذه الأيام اخترت لك هذه الفقرات المتناثرة التى رجعت إليها فى ليالى الصيف الحارة وأعدت قراءتها وتوقفت أمامها من جديد متأملاً ومتفكرًا .

فى مذكراتها التى وصفتها بأنها «ترنيمة لبهجة الحياة» قالت أشهر مؤلفة للقصص البوليسية فى التاريخ «أجاثا كريستى» : « كتابة المذكرات الشخصية تتطلب أن يسجل الإنسان كل شىء هام فى حياته وأن يذكر تواريخ وأماكن محددة ، لكنى لم أفعل ذلك حين كتبت مذكراتى فلقد أردت أن أغمس قلمى فى مداد بهيج وأن أخرج منه بحفنة من الذكريات الحلوة فتذكرت فقط ما أردت أن أتذكره ونسيت ما أردت أن أنساه ، ومن أعظم أشكال حسن الحظ فى الحياة أن تكون لك طفولة سعيدة وقد كان لى هذا الحظ العظيم ، فنشأت فى بيت

سعيد وحين أعود إلى الوراء أجد أن ذلك يرجع أساسًا إلى شخصية أبى الذى لم أدرك للأسف إلا متأخرة كم كان رجلاً محبوبًا من أصدقائه وكل من يتعامل معهم » .

أما على الجانب الآخر فلقد توقفت أمام فقرة أخرى من مذكراتها تقول فيها «فى كل أسرة هناك دائمًا عضو يكون عادة هو مصدر المتاعب والقلق فيها . . وبالنسبة لأسرتى فقد كان هذا العضو هو شقيقى «تومى» الذى ظل حتى آخر يوم من عمره مصدراً «للصداع» وسببًا للقلق والعناء بالنِّسبة لنا» !

يا إلهى كنت أظنه اكتشافًا شخصيًا لى حين قلت ذات مرة إن بين أفراد كل أسرة غالبًا عضواً هو «قدرها» فى الحياة . . أو «فاسوختها» الذى تتحمل دائمًا وبلا ذنب جنته نتائج أفعاله وتصرفاته واختياراته الخاطئة فى الحياة . . ويظل هو طوال رحلته مع الدنيا سببًا لمعاناتها . . والفرع المائل من شجرتها التى لا مفر أمامها من أن تواصل باستمرار محاولة صلبة . . وإقامة ظهره بسند منها ، لأنه كفروع شجرة اللبلاب تحتاج دائمًا إلى ما تستند إليه ! فإذا بالمؤلفة الإنجليزية الشهيرة تؤكد فى مذكراتها الشخصية أنه لا جديد تحت الشمس ولا نهاية لأسرار النفس الإنسانية الغامضة !

من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه استرجع دائمًا ما رواه عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز حين تولى الخلافة فوفد إليه الشعراء كما كانوا يفدون إلى الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه ينتظرون الإذن لهم بالدخول عليه لينشدوه أشعارهم ومدائحهم

وينالوا عطاءه ، فلم يأذن لهم عمر بن عبد العزيز حتى قدم عليه عونْ ابن مسعود وتشفع لديه فى الإذن لهم بالإنشاد بين يديه قائلاً : إن الشعراء ببابك ، وأقوالهم باقية ، وسنانهم مسنونة ، وقد مُدح الرسول ﷺ من بعض الشعراء وأعطاهم ، فسأله عمن يقفون ببابه ، فذكرهم له واحدًا بعد الآخر فكان كلما ذكر له أحدهم : قال عمر : قبحه الله . . أليس هو القائل ثم يروى بعض شعره فى المجون أو الغزل المفضوح ، ويرفض استقباله ، إلى أن ذكر له عون اسم «جرير بن اليربوعى» فلم يأخذ عليه مجونًا فى غزله وأذن له وبادره حين مثُل بين يديه بالقول : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقًا ! وأنشده جرير بعض المديح واستمع إليه عمر بن عبد العزيز صامتًا ثم قال له يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة «درهم غالبا» فمائة أخذها عبد الله «ابنه» ومائة أخذتها أم عبد الله «زوجته» . . يا غلام اعطه المائة الباقية !

فقال جرير الذى اعتاد العطايا السخية من قبل : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلىّ ثم خرج إلى زملائه من الشعراء وسألوه : ما وراءك فأجاب : ما يسوؤكم ! فلقد خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإنى عنه لراضٍ .

ولا تعليق من عندى على هذه القصة ، سوى أنها سطر جديد فى قصة هذا الخليفة التقى الورع الذى قالت عنه فاطمة زوجته حين سئلت بعد وفاته عن أحواله وعبادته فقالت ، والله ما كان أكثركم صلاة ولا أطولكم صيامًا . . لكنى ما رأيت عبدًا أخوف لله منه .

رضوان الله وسلامه عليك يا سيدى يا أمير المؤمنين .

من كتاب عن قصة حياة «إبراهام لينكولن» الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية ومحرر العبيد (١٨٠٩ - ١٨٦٥) ، عمل لنكولن محاميًا مع شريك له فى مكتب واحد بمدينة سبرنجفيلد ، ثم بدأ يتطلع لأداء دور سياسى فرشح نفسه لانتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية «الينوى» لكنه خسر الانتخابات أمام المرشح المنافس دوجلاس بـ٤٦ صوتًا مقابل ٥٤ صوتًا لمنافسه ، ويوم ظهور النتيجة عاد إلى بيته ماشيًا فى الطرق المظلمة وكان الطريق حجريًا زلقًا فزلقت رجله وكاد يقع بجسمه الضخم على الأرض إلا أنه تمالك نَفسه وشد جسمه العملاق وهو يقول لنفسه بصوت مسموع : إنها زلة وليست سقوطًا !

مشيراً بذلك إلى تعرضه للسقوط على الأرض وإلى هزيمته أيضًا أمام منافسه فى الانتخابات ، وحققت الأيام نبوءته ، فلقد ذاع اسمه فى البلاد بسبب مناظراته مع منافسه فى هذه الانتخابات التى خسرها وبدأ كثيرون يطالبونه بالترشيح للرئاسة ، وفاز بترشيح الحزب الجمهورى له لانتخابات الرئاسة وخاض المعركة بالفعل وكان خصمه الأساسى فيها هو دوجلاس نفسه الذى هزمه فى انتخابات الشيوخ ، لكنه انتصر عليه هذه المرة . وتحققت النبوءة بأنها كانت «زلة» ولم تكن سقوطًا ولا فشلا نهائيًا .

وذهب «النكولن» إلى مكتب المحاماة ليجمع أوراقه استعدادًا للمرحلة الجديدة من حياته فراح يتأمَّل شريكه فى المكتب للحظات ثم سأله : كم عامًا عملنا فيها معًا ؟

فأجابه : ١٦ عامًا .

فقال له لينكولن : ولم تجر بيننا خلالها كلمة مشاحنة واحدة ؟

فأجابه شريكه الأمين : بلى يا سيدى . . ولا كلمة واحدة !

فطلب منه لينكولن ألا يرفع اللافتة التى تحمل اسمه معه عن مكتب المحاماة ؛ لأنه سيرجع للعمل معه من جديد حين تنتهى فترة رئاسته لأمريكا لكن النبوءة لم تتحقق هذه المرة وأغتيل «لينكولن» وهو رئيس للولايات المتحدة لفترة ثانية عام ١٨٦٥ !

فترى كم إنسانًا يستطيع أن يقول الآن : إنه قد شارك أحدًا فى عمل أو حياة أو حتى صداقة فلم تجر بينهما كلمة مشاحنة واحدة خلال ١٦ عامًا ؟

من موسوعة تاريخ العالم ، كان بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٧٢ - ١٧٢٥) حاكمًا عبقريًا حكم بلاده لمدة ٤٣ سنة كاملة وزار أوربا وهو قيصر روسيا متخفيًا تحت اسم مستعار وعمل نجارًا بسيطا فى ورشة لصناعة السفن ليدرس الصناعة ، ورجع إلى بلاده معجبًا بالحضارة الأوربية وعازمًا على إلحاق بلاده بأوربا لتكون قطعة منها بدلاً من عزلتها الآسيوية فبنى المدن العظيمة على الطريقة الأوربية

وأنشأ الصناعات وفتح المدارس وحث على التعليم ، لكنَّه فى اندفاعه المحموم لتقليد أوربا والأوربيين وقع فى المحظور وأصدر قراراً مضحكًا يحرم على الروس إطلاق لحاهم وكانوا جميعًا يفضلون ذلك ، ونص القرار العجيب على أن يحصل من يريد إطلاق لحيته على ترخيص بذلك من السلطات المختصة مقابل أن يدفع ضريبة سنوية محددة ، فكانت ضريبة اللحية هذه ومازالت من أعجب أنواع الضرائب والرسوم فى العصر الحديث ! ودليلاً جديداً على أن المغالاة فى التقليد قد تمسخ الشخصية القومية لأى مجتمع بغير أن تحقق التقدم .

فى كتاب الوجه الآخر للدبلوماسية يروى السفير فتحى الجويلى أن دبلوماسيًا أمريكيًا كانت بينهما دائمًا مساجلات ودية يفاخر كل منهما فيها بقومه وحضارته ، فجاءه الدبلوماسى الأمريكى ذات مرة وقال له وهو سعيد : إن إحدى الولايات الأمريكية قد أصدرت مؤخراً قراراً يمنع زواج المطلقة برجل آخر قبل مرور ثلاثة شهور على طلاقها ثم سأله منتشيًا : هل عندكم قانون متحضرٌ كهذا القانون ؟ فضحك السفير الجويلى وقال له إن هذا القانون «المتحضر» الذى أصدرته تلك الولاية منذ شهور قليلة يعمل به المسلمون فى أنحاء الأرض الأربعة منذ ١٤ قرنًا قد ورد فى القرآن تحريًا لحمل المطلقة وتجنبًا لاختلاط الأنساب !

وعجبى !

من مذكرات شارلى شابلن أن «وليم هيرست» ملك الصحافة الأمريكية فى العشرينات والثلاثينيات كان يهاجم فى صحفه رجال «وول ستريت» شارع المال والأعمال ، فالتقى رجل الأعمال «راسل سدج» بوالدة وليم هيرست وكانت مغرمة بابنها ويتمتع دائمًا بتأييدها فقال لها سدج :

- إذا استمر ابنك يهاجم « وول ستريت » فإن صحيفته ستخسر مليون دولار كل عام .

فأجابته الأم بهدوء : حسنًا ، بهذا المعدل يستطيع ابنى أن يستمر فى المهنة لمدة ٨٠ عامًا !

وما أحلى أن يؤمن الآباء والأمهات بأبنائهم ، وأن يتمتع الأبناء بتأييدهم ومساندتهم الأدبية والمعنوية لهم طوال الحياة .

ومن رواية السيمفونية الريفية للأديب الفرنسى أندريه جيد ، تأمل القَس العاشق عشقًا عفيفًا صامتًا للفتاة العمياء الجميلة «جرترود» السماء فى ليلة هادئة وقال :

« أمن أجلنا يارب جعلت الليل شديد العمق . . والهواء دافئًا ونور القمر يتهادى إلىّ من النافذة فيغمرنى بفيض من السحر . . ربٌ إن كان للحب حدًا فهو من صنع البشر وليس من صنعك أنت ومهما يظهر حبى آثمًا فى أعين الناس فألهمنى الإيمان بأنه عندك طاهر نقى » !

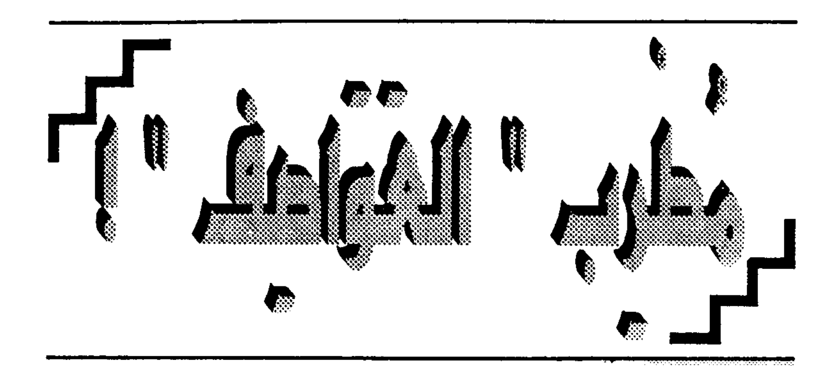
. . ولا تعليق من عندى على هذه الكلمات الرقيقة الحانية !

أما من طبقات الشعرانى فإنى أختتم هذه الثرثرة الصيفية بهذه المناجاه الفريدة من نوعها التى رواها عن العابدة القانتة عائشة بنت جعفر الصادق سادس أئمة الشيعة الإمامية ، وقد أثر عنها أنها ناجت ربها ذات مرة فقالت : وعزتك وجلالك لئن عذبتنى لآخذن توحيدى بيدى وأدور به على أهل النار أقول لهم : وحَّدته . . فعذبنى !

فأى وجد أوحى لهذه العابدة القانتة بهذه المناجاة الفريدة من نوعها وأى «حال» صوفية سامية سمحت لها بأن تُدلّ على ربها . . بأنها سوف تحتمى بتوحيدها له من كل عذاب فإن حَدث ما تخشاه فلن تسكت !

وكل سنة وأنت «شباب» العقل والروح والقدرة على احتمال حر الصيف !








أدرى لماذا أتذكره الآن وقد مضت عشرون عامًا على الأقل منذ رأيته آخر مرة ؟

هل لأننى أرى «أشباهًا» كثيرين له فى الحياة يكررون نفس « الخطأ المشترك» وإن كانوا لا يدفعون ما دفعه هو من ثمن باهظ لخطئه ؟

أما الخطأ المشترك فهو أن يعمى الإنسان عن قدراته الحقيقية ويطلب لنفسه ما لا ترشحها له إمكانياته ، مدفوعًا فى ذلك بتطلع الإنسان المحموم لأن ينال ما ناله غيره من حظوظ فى الحياة بغير أن يتوقف أحيانًا ليسأل نفسه : وهل تسمح لى قدراتى وملكاتى حقًا بما سمحت به الحياة لهؤلاء الفائزين ؟ وهل عانيت أنا بعض ما عانوه قبل أن يحققوا نجاحهم لكى أطلب لنفسى جوائز الحياة لهم ؟ وهل تكفى «الرغبة» العارمة وحدها لنيل الأشياء بغير أن تساندها القدرات

والإمكانيات والظروف المواتية التى تسمح ببلوغ الأهداف ؟

إن مأساة البعض تبدأ غالبًا حين يتطلع الإنسان لحظوظ الآخرين ، فيسأل نفسه هذا السؤال المخادع :

- وماذا «يزيد» عنِّى فلان لكى ينال من الحياة ما لا أناله أنا ؟ ولماذا لا أطلب لنفسى ما طلبه هو وحصل عليه وتمتع به ؟ فيتغافل بذلك عن حقائق جوهرية هامة هى أن «الغيرة» من حظوظ الآخرين ليست مبرراً كافيا أبدا لنيل مثل حظوظهم ، ولا الرغبة الضارية أيضًا فى الحصول عليها كافية وحدها لنيلها فمطالبنا من الحياة ، كما يقول لنا المفكر الفرنسى مونتسكيو - عادة كثيرة ، ويصعب تحقيقها كلها لأن ذلك لا يتوقف على إرادتنا وحدنا وإنما أيضًا على أشخاص آخرين وظروف قد تسمح بذلك أو لا تسمح ، تمامًا كما يفعل الإنسان حين يرغب فى الحصول على بدلة جديدة فلا تكفى رغبته وحدها فى تحقيق ذلك وإنما لابد أيضًا من أن تتوفر لديه الإمكانيات التى تسمح له بشراء القماش الفاخر المناسب ، وأن يكون محل القماش مفتوحًا ليشتريه منه والقماش نفسه متوفراً فيه ، وبعد ذلك كله وقبله فلابد أيضًا من موافقة «حائك الملابس» على تفصيل هذا القماش وتحويله إلى بدله أنيقة يسعد بها من يرتديها . . وكل هذه الظروف وخاصة موافقة «حائك الملابس» لا تخضع لسيطرة الإنسان ولا لإرادته ولأن البعض يطلبون لأنفسهم الكثير أحيانًا بغير الحصول على موافقة حائك الملابس التى ترمز هنا للقدرة الإلهية والإرادة العليا التى تحكم هذا الكون ، فإن المأساة تتكرر من جيل إلى جيل بلا نهاية . .

ولم يكن صديقى «مطرب العواصف» بالصاد وليس بالطاء - سوى واحد من ضحايا هذه المأساة الإنسانية الأزلية .

فلقد نظر فى المرآة ذات يوم منذ ثلاثين عامًا فوجد نفسه قريب الشبه من مطرب جيلنا عبد الحليم حافظ . . وتلفت حوله ورأى العندليب الأسمر يحلّق فى سماء الشهرة والنجاح والثراء . . وقلوب الفتيات والشباب تخفق له فى كل مكان ، فسأل نفسه : وماذا ينقصنى لكى أكون فارس القلوب والأسماع فاستمتع بالشهرة والثراء وحب الملايين «مثله» ؟

إننى أحفظ أغانيه . . وصوتى لا بأس به رغم حقد الحاقدين الذين يتغامزون علىّ كلما غنيت أغانيه أمامهم ، كما أننى عليل الجسم ومريض المعدة من أثر النشأة البائسة فى الريف مثله فلماذا تفرق إذن بيننا الحظوظ ؟

وبغير استئذان «حائك الملابس» والتأكد من القدرات والمواهب اتخذ هذا الشاب البائس قرارًا مصيريًا بالاستقالة من عمله كمدرس بالمدارس الابتدائية بقريته ، وهاجر إلى الإسكندرية ليبدأ رحلة الصعود إلى النجاح والشهرة ، متجاوزًا عن توسلات أمه وإخوته إليه ألا يحرمهم من مورد الأسرة الوحيد بعد أن عانت ما عانت فى سبيل تعليمه ، وغزا الشاب الحالم المدينة الكبيرة باحثًا عن حظه فنزل ضيفًا على بعض أبناء قريته الذين يدرسون بجامعة الإسكندرية ، وليس فى يده من سلاح سوى بضعة جنيهات وبدلة سوداء اشتراها بمعظم

مدخراته ليبدو فى مظهر لا يختلف عن مظهر العندليب ، ثم صفف شعره على طريقة عبد الحليم حافظ وتوجه إلى إذاعة الإسكندرية طالبًا «اكتشافه» وتقديمه للجماهير . .

وبعد معاناة طويلة انعقدت لجنة الاستماع بالإذاعة واستمعت إليه وهو يغنى أغانى عبد الحليم ويقلِّد حركاته وإشاراته ، فانفجر أعضاء اللجنة فى الضحك ونصحوا الشاب بأن يرجع إلى مهنة التدريس لأن قرب الشبه بينه وبين عبد الحليم حافظ لا يكفى لأن يصنع منه مطربًا .

وغادر الشاب مبنى الإذاعة حزينا مكتئبًا وبدلاً من أن يتبين وجه الحكمة فيما نصحه به أعضاء لجنة الاستماع «تذكر» أن عبد الحليم حافظ نفسه قد واجه الفشل فى بداية حياته ولم يثن ذلك عزمه . . فقرر هو أيضًا ألا ينهزم أمام حقد هؤلاء الحاقدين من أعداء النجاح وأن يصنع نجاحه خارج مبنى الإذاعة ليفرض نفسه عليها وعلى إذاعة القاهرة نفسها فيما بعد ، وتوجه إلى مسارح المنوعات التى كانت منتشرة وقتها بكورنيش الإسكندرية وعرض نفسه على أصحابها . . وامتحنه أكثر من واحد منهم ثم رفضه ساخرًا منه أو مشفقًا ، إلى أن لمعت فى ذهن أحدهم فجأة فكرة أن يستفيد من شبه هذا الشاب البائس بعبد الحليم حافظ ويقدمه فى مسرحه بلا أجر على سبيل التجربة .

وجاءت لحظة المواجهة الأولى مع جمهور هذا المسرح فى المساء ، وقدمه المذيع بأنه العندليب الأسمر الجديد ، وصعد المطرب الشاب

إلى المسرح فلاحظ الحاضرون الشبه الواضح بينه وبين مطربهم المحبوب وترقبوا أن يكون صوته أيضًا شبيهًا به ، وعزفت الفرقة الموسيقية مقدمة أغنية « نار يا حبيبى نار » ثم بدأ المطرب الجديد الغناء فإذا بصوته يتسلخ وينشرخ ويتحول إلى عواء يثير الفزع والضحك والرثاء معًا وتلفت الحاضرون حولهم يتساءلون عن تفسير لهذه الحكاية فلم يجدوا لها تفسيراً وراقبوا المطرب الشاب ، وهو يغمض عينيه ويقلد حركات عبد الحليم حافظ وإشاراته فلم يلبث بعضهم أن وجد فى المقارنة بين الأصل والصورة ما يثير الضحك والسخرية . . فبدأوا «يستمتعون» بالفقرة الغنائية . ويضحكون من قلوبهم ويهللون للمطرب الجديد ويطلبون منه إعادة المقاطع والأغنيات وقد سرى بينهم تيار غريب من الابتهاج وزادهم استمتاعًا بالفقرة أن شاهدوا أعضاء الفرقة الموسيقية التى تصاحب الشاب أنفسهم مستغرقين فى الضحك ويتحمسون لمواصلة العزف وراء «المطرب» من باب السخرية وكل ذلك والشاب البائس لا يشعر بسخرية الساخرين ، أويشعر بها ويفسرها كعادته فيما لا يريد الاقتناع به بأنها من أثر حقد الحاقدين على موهبته الصاعدة .

وانتهت الفقرة الغنائية بعد أن حققت أثرها البهيج على الحاضرين وأدرك صاحب المسرح حقيقة الموقف من الوهلة الأولى فقرر السماح له بالاستمرار فى العمل كل ليلة ولكن ليس كفقرة غنائية عاطفية ، كما يتوهم الشاب ، وإنما كفقرة فكاهية تمتع الجمهور وتثير ضحكهم .

وفى الليالى التالية تكررت المفارقة المؤسفة بين غناء المطرب الشاب العاطفى الحزين وبين ضحك الجمهور وأعضاء الفرقة الموسيقية وابتهاجهم الغريب طوال الغناء ، إلى أن أصبحت هذه الفقرة أنجح فقرات هذا المسرح وأكثرها إثارة لاهتمام الجمهور ومتابعته ، والشاب غارق فى أحلامه وأوهامه ويتصور أن هذا الإقبال عليه هو بشير النجاح والشهرة وتحقيق الآمال .

صحيح أن صاحب المسرح لا يعطيه سوى جنيهين فقط كل ليلة ينفق أكثرهما على كى البدلة والقميص وتلميع الحذاء وحلاقة ذقنه وتصفيف شعره عند الكوافير كل مساء على طريقة عبد الحليم حافظ ، فلا يبقى له بعد ذلك ما يقيم أوده أو يسمح له باستئجار غرفة يقيم بها لكن لا بأس بذلك فهكذا عانى أيضًا عبد الحليم فى بدايته ثم انهالت عليه بعد ذلك جوائز النجاح .

لكن الفقرة الغنائية تطورت بعد ذلك تطوراً مؤسفًا ساهمت فيه شخصية هذا الشاب البائس نفسه فلأنه يتوهَّم فى نفسه مطربًا عاطفيًا خطيراً ، فلقد كان ينأى بنفسه عن مخالطة أعضاء الفرقة الموسيقية والعاملين بالمسرح ، كما ينبغى لفنان موعود بالمجد مثله ، فكرهه هؤلاء بدلا من أن يتعاطفوا معه وكرهوا «كبرياءه» الفنى البائس وترفعه عن الاقتراب منهم وتحولت كراهيتهم له مع مرور الأيام إلى روح عدائية قاسية لا تراعى مشاعره ولا يردعها صاحب المسرح الذى أصبح يستمتع أكثر من غيره بما فعلوه مع مطربه الموهوم . وفى كل ليلة راح العاملون فى المسرح يتفننون فى السخرية من المطرب

والإساءة إليه فلا يجدون منه سوى نظرة الاستعلاء والصمت المتكبر والازدراء وقد بدأت موجة العدائية ضده حين كان يغنى ذات ليلة أغنية نار يا حبيبى نار فهرول إلى المسرح أحد العاملين بكوب من الماء وألقاه على المطرب بدعوى إخماد النار التى شبت فيه فجأة والجمهور وأعضاء الفرقة الموسيقية يتمايلون من الضحك والنشوة والابتهاج .

ورغم ذلك فقد واصل المطرب نفس الأغنية بلا احتجاج وأغمض عينيه من جديد . . وجعر : نار . . نار . . نار فإذا بأحد العاملين يهرول إليه بطفاية الحريق ويفتحها عليه فوق المسرح فتغطيه الرغاوى من كل جانب ويتوقف الموسيقيون عن العزف من شدة الضحك ويغرق الجميع فى نوبة من الضحك القاتل .

ولم ينقطع المطرب الشاب رغم كل ذلك عن الغناء فى هذا المسرح بعد هذه الليلة ولم يلتقط الإشارة الواضحة التى لا تحتاج إلى بيان بأنه ليس مطربًا ولن يكون كذلك ذات يوم ، وواصل تحديه لظروفه وإمكانياته بلا نهاية فتحولت فقرته الغنائية فى الليالى التالية إلى تراجيديا مبكية ومضحكة فى الوقت نفسه ، فبالإضافة إلى إخماد «حريقه» كل ليلة بفتح الطفاية عليه وإلقاء الماء ، فقد كان لا يغنى من أغانى عبد الحليم إلا الأغانى الحزينة المغرقة فى الحزن مؤمنًا بأن المطرب «العاطفى» لا ينبغى له أن يغنى إلا مثل هذه الأغانى ، وضاق بذلك أعضاء الفرقة الموسيقية وراقبوه بملل ذات ليلة وهو يغنى أغنية «فى يوم فى شهر فى سنة تهدى الجراح وتنام» ثم طرأت لأحدهم فكرة مفاجئة فهمس بها لزملائه وفاجأوا المطرب وهو منهمك فى

الغناء الحزين بعزف موسيقى أغنية «تعاليلى يا بطة» وصفق الجمهور مع الإيقاع والضحك يقتلهم والمطرب البائس ينظر للفرقة فى حسرة وينتظر حتى يكف أعضاؤها عن العبث ويعودوا لعزف موسيقى الأغنية الحزينة فيرجعوا إليها ويستسلم هو للغناء والتأوهات فيقطعون عليه اندماجه مرة أخرى بنفس الموسيقى الهزلية !

واحتج المطرب لدى صاحب المسرح فلم يحفل باحتجاجه ، وأصبح تقليداً متكرراً بعد ذلك كل ليلة أن يغنى المطرب فى واد وتعزف الفرقة فى واد آخر ما يحلو لها من موسيقى الأغانى الضاحكة.

ومع تكرار القصة كل ليلة بنفس عبثها وتفاصيلها فقدت الفقرة المبتكرة جدتها وبهجتها ، فزهد فيها صاحب المسرح بعد حين وصرف المطرب البائس طالبًا منه البحث عن عمل آخر .

وخلال هذه الفترة العجيبة من حياته التقيت به فى مسكن بعض أصدقاء الطفولة الذين يعملون بالإسكندرية خلال زياراتى لهم وناقشته طويلاً فيما ترددت إليه أحواله بعد أن هجر مهنته الأصلية وقريته ، وحاولت إقناعه بالعودة إلى أسرته وقريته وعمله كمدرس وأن ينفس عن هوايته بالغناء فى الحفلات المدرسية مؤكدًا له أنه إذا كان صاحب موهبة حقيقية ، فلسوف يسعى إليه حظه ذات يوم ولو كان فى آخر بلاد الدنيا ، ففوجئت به ينظر إلى فى ألم ويقول لى متحسراً : حتى أنت يا أستاذ تنصحنى بما ينصحنى به الحاقدون والجهلاء بدلا من

أن تكتب عنى وتأخذ بيدى ! فأدركت أن الحال قد أصبحت مستعصية على العلاج . . وأنه لا أمل فى الإصلاح إلا بعد أن تلقنه الحياة دروسها القاسية بمطرقتها الثقيلة وعزفت عن محاولة نصحه ، وعلمت فيما بعد أن أحواله قد واصلت التدهور إلى مالا نهاية فضاق بضيافته الطويلة مضيفوه من أبناء بلدته وأصبح يتنقل بين بيوت المعارف القليلين فيقضى ليلة هنا وليلة هناك ضيفًا غير مرغوب فيه وقد يعز عليه المأوى أحيانًا فيمضى ليلته فى محطة السكة الحديد نائمًا «ببدلة السهرة» الرثة بين المتسولين وجامعى أعقاب السجائر .

ثم انقطعت عنى أخباره بعد ذلك ونسيته فى زحام الحياة ، فإذا بى ألتقى به بعد خمس سنوات بالصدفة على كورنيش الإسكندرية يرتدى نفس البدلة الرثة . . ونفس الكرافت التى يثبتها بدبوس رخيص ، وربما نفس القميص المتهالك أيضًا الذى يضع فيه أزرارًا معدنية قديمة وقد ازداد جسمه نحولا وبدت عليه آثار سوء التغذية ، ورغم ذلك فهو يمشى بنفس الطريقة المتعالية . . ويضع منديلا فى جيب الجاكت ، ويتحدث بنفس الصوت العاطفى الهامس فرأيت فيه تطبيقًا عمليًا لهذا التعبير الفريد الذى صكه الأديب الفرنسى أناتول فرانس حين وصف حال شخص مثله فقال عنه إنه أنيق «أناقة قذرة» وسألته عن أحواله فقال لى إنه مازال يبحث عن النجاح .

وسألته كيف يدبر أمور حياته بعد كل هذه السنوات ، فأجابنى فى خجل أن اضطر تحت ضغط الظروف القاهرة إلى تقديم بعض

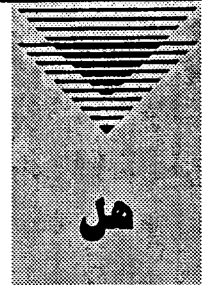
«التنازل» عن كبريائه الفنى فقبل أن يكسب رزقه بالعمل كمدرس خصوصى للحساب والهندسة لعدد من أبناء وأقارب بعض معارفه فى الإسكندرية لكنه يعتبر هذه المرحلة من حياته «محطة» مؤقتة لن يلبث أن يغادرها فى أقرب وقت .

وودعته على الشاطئ وانصرف كل منا إلى طريق .

ولست أدرى ماذا صنعت به الدنيا بعد ذلك فإذا كنت أتذكره الآن من حين لآخر فلأننى ألتقى أحيانًا بأشخاص يطلبون لأنفسهم حظوظ الآخرين بغير أن يتوافر لهم قدراتهم ومواهبهم ، بل ولا ظروفهم التى سمحت لهم بتحقيق ما حققوه ، ورغم ذلك فهم ينفسون على هؤلاء الآخرين حظوظهم من الدنيا ولا يلومون أنفَسهم أبدًا على تطلعهم المحموم إلى ما لا تسمح لهم به ظروفهم ولا على رغبتهم المتعجلة فى نيل جوائز الحياة بغير أن يقدموا لها قرابين الكفاح والعطاء والعرق لسنوات وسنوات ولا على أنهم لا يتفهمون أبدًا أن «الرغبة» وحدها لا تكفى وأنه لابد دائمًا من موافقة «حائك الملابس» لكى يحصل الإنسان على حُلة جديدة !



# يحدث .. لكل إنسان !



هل تذكر حكاية ذلك الفيلم العربى القديم عن الزوجة الحالمة التى كانت تستسلم كثيراً لأحلام اليقظة فتتمثل نفسها فى شخصيات بطلات الأفلام التى تشاهدها ، وتبدأ فى التصرف بنفس طريقتها فتسبب لزوجها مشاكل محرجة وطريفة ؟

يبدو والله أعلم أنه قد حدث لى شىء شبيه بذلك لكنى سأؤجل الحديث عنه إلى أن أروى لك أولا قصة «الظروف» المحيطة به !

منذ فترة قصيرة قرأت رواية «هموم شخصية» للأديب اليابانى «أوى كنزابورو» الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩٤ ، فاجتذبتنى منذ سطورها الأولى .. واستغرقت فى قراءتها بلهفة وعايشت شخصيات أبطالها .. وتعاطفت مع بعضهم و«صادقتهم» حتى كدت أتخيَّل ملامح وجوههم .

والرواية تحكى قصة شاب عمره ٢٧ عامًا اسمه « بيرد » أى طائر أو عصفور . كما يناديه الجميع . وهو شاب قليل الأصدقاء وحالم وكلما واجهته مشكلة كبيرة من مشاكل الحياة هرب من مواجهتها بالانغماس فى شرب الخمر فأضاعت الخمر طموحه وتوقف عن دراساته العليا وسعى له صهره الأستاذ الجامعى حتى عيّنه مدرسًا فى مدرسة لتقوية الطلاب الراسبين فى المدارس الحكومية . وقد تزوج عصفور منذ عامين لكن أحلامًا غريبة تراوده وتغريه بأن يترك كل شىء وراءه ويفر من قفص الزوجية والحياة الرتيبة فيرحل إلى أفريقيا ويرتاد أحراشها وغاباتها ويعمل مرشدًا للسياح الأجانب الباحثين عن المغامرة والإثارة فى القارة السوداء . ويسيطر على خياله حلم أفريقيا فيشترى خرائطها ويروح يدقق النظر فيها بالساعات، ويدخر من مرتبه مبلغًا يبدأ به مغامرته الكبرى حين يقوى على مغادرة القفص .

والرواية تبدأ وهو يعيش وحيدًا فى مسكنه مع خرائطه وأحلامه ، فزوجته فى المستشفى تضع مولودها الأول . . وهو لا يعرف هل يسعد بهذا المولود الجديد حين يجىء أم يضيق به ؛ لأنه سيصعب من حلم الهروب ؟!

ويجيئه رنين التليفون بالخبر المرتقب ، ويسرع إلى المستشفى فيقابله الطبيب بوجوم . . ويعرف منه أن زوجته على خير ما يرام . . لكن المولود الجديد ليس كذلك . . فهو «مسخ» مشوّه يخرج من رأسه نتوء

ضخم بحجم الرأس الأصلية وهيئته ليست بشرية ، ولابد من نقله على الفور إلى المستشفى الجامعى الكبير لإجراء جراحة خطيرة له لفصل هذا النتوء الضخم عن رأسه !

ويصاحب عصفور سيارة الإسعاف التى تنقل طفله إلى المستشفى الكبير ويبلغه الأطباء بأنه لابد من الانتظار لبضعة أيام تتم خلالها تغذية الطفل وتقويته حتى يتحمل عناء الجراحة ، ويصارحونه بأن احتمالات النجاح ضعيفة . . وبأنه قد ينمو . إذا نجا من الموت - طفلاً غير طبيعىّ وربما ليس أكثر من « نبات بشرى » لا يعقل ولا يحس !

ويكتئب عصفور لما سمع . . لكنه يعود إلى بيته فيخرج المبلغ الذى ادخره لتحقيق حلم أفريقيا ويودعه خزينة المستشفى كتأمين لنفقات الجراحة . ويزور صهره ليبلغه بالحقيقة القاسية فيستشعر الرجل أزمته النفسية ويُهديه زجاجة خمر يتصوَّر أنه فى أشد الأوقات احتياجًا لها .

ويسأل عصفور نفسه بعد مغادرة صهره : أين تذهب الآن ؟ . . ومن يشاركه هذه الزجاجة وهو بلا صداقات حميمة تقريبًا ؟ . . فيتذكر أخيرًا زميلته السابقة فى الجامعة وصديقته فى إحدى المراحل «هيميكو» ، إنها أنسب إنسان يستطيع أن يشاركه أوقاته فى هذه الظروف الكئيبة . . فهى أرملة شابة انتحر زوجها بعد عام واحد من الزواج ، وتعرضت لمحنة عصبية أليمة وأشفق عليها والد زوجها الراحل وتكفل بنفقات بيتها وحياتها وفاءً منه لابنه ، فعاشت حياة

بوهيمية غريبة تنام فى النهار وتخرج فى الليل فتقضى الساعات تقود سيارتها بسرعة جنونية بلا هدف، وتقيم علاقات عابرة مع من تشاء، وتوجه عصفور إلى بيتها وشاركها زجاجة الخمر وشرب أكثرها . . وأمضى الليل عندها ، وفى الصباح الباكر صحا من نومه على تقلصات رهيبة فى معدته وغثيان خانق يقتله فأسرع إلى الحمام وعوى مفرغًا معدته ، ثم غادر بيت زميلته القديمة إلى مدرسته وهو مازال يشعر بالألم والإعياء ، وألقى درسه على تلاميذه وهو يقاوم الغثيان . . حتى اشتد عليه فانحنى وراء منصة المعلم وواصل إفراغ معدته بعواء أشد !

وشاع فى المدرسة أنه جاء إلى عمله مخمورًا فطالبه مديرها بالاستقالة ، ورجع عصفور إلى بيت صديقته البوهيمية ولخص لها حاله فى كلمات موجزة هى : جاءنى طفل لا أريده . . وفقدت وظيفة لم أكن أحبها !

وزار عصفور المستشفى الذى يرقد به طفله ورآه فى الحضَّانة من خلف الزجاج فهالته بشاعة شكله وهيئته ، وبعد حوار باطنى قصير مع نفسه سلم بأنه لا يريد هذا الطفل على أى حال من الأحوال وليس مستعدًا أبدًا لمواجهة مسئوليته ، وأبلغ الطبيب المختص بقراره الخطير وهو أنه لا يريد تقوية الطفل لكى يتحمل الجراحة المشكوك فى نتيجتها وإنما يريد إضعافه بتقديم اللبن المخفف بالماء أو الماء المسكر له حتى يموت تدريجيًا ويستريح !

ويمتثل الطبيب لرغبة الأب الذى يعطيه القانون فى بلاده هذا الحق البشع ، وينصرف عصفور واجمًا ومكتئبًا وينتقل للإقامة الدائمة فى مسكن صديقته فى انتظار رنين التليفون الذى سيحمل له نبأ وفاة الطفل فى أية لحظة . . وتوثق الحياة المشتركة الروابط بينهما من جديد حتى يفاجأ بها بعد أيام تشاركه حلم أفريقيا وتؤكد له اعتزامها مصاحبته إليها ، ويستغرق عصفور فى أحلامه فيقول : حين يموت الطفل وتسترد زوجتى صحتها سأحصل على الطلاق . . وأذهب إلى أفريقيا وأصبح حرًا أفعل ما أشاء حيث أشاء !

لكن إنتظاره لمكالمة المستشفى التى ستحمل له «البشرى» يطول وينغمس خلال فترة الانتظار فى مشكلة دبلوماسى أجنبى صديق وزميل له فى جمعية الدارسين الثقافية ، فلقد أحب الدبلوماسى الذى يعمل بسفارة إحدى دول البلقان الشيوعية فتاة يابانية وهجر مكتبه وسفارته وأقام معها فى مسكن صغير بحى شعبى مزدحم . . والسفارة تستنجد بأعضاء الجمعية لإقناعه بالعودة بهدوء حتى لا تضطر لترحيله لبلاده بالقوة . . وعصفور هو أقرب الأعضاء إلى قلبه، فيبحث عنه حتى يعثر عليه ويرفض الدبلوماسى العودة مضحيًا بكل شىء ، ويسأل عصفور عن أحواله فيحكى له قصة المولود المشوَّه الذى يترقب موته بلهفة ، فيتساءل الدبلوماسى العاشق متعجبًا : ولماذا تنتظر موته وفى استطاعتك إجراء جراحة لإنقاذه أيًا كانت نتائجها ؟! فيغادره عصفور مضطربًا ومرتبكًا !

وأخيراً يستدعيه المستشفى فيسرع إليه متصوراً أن المشكلة قد حلت بوفاة الطفل فيفاجأ بالجراح الكبير يبلغه بأن صحة الطفل قد تحسنت كثيراً ويطلب موافقته على إجراء الجراحة له !

ويواجه عصفور لحظة الاختيار الحاسمة وتشاركه صديقته التفكير واتخاذ القرار الصعب فيحسم امره فى النهاية بعدم موافقته على إجراء الجراحة ويطلب منه المستشفى تسلم طفله ومغادرة المكان .

وتشير عليه صديقته . وقد ازدادت حماسًا لفكرة المغامرة والرحيل إلى أفريقيا - بإيداع الطفل عيادة طبيب مشبوه تعرفه وتغذيته بالماء المسكر فقط إلى أن يموت تدريجيًا !

وتصاحبه إلى المستشفى فيتسلم طفله ويستعيد قيمة التأمين الكبير من خزينته ، وتجوب السيارة الشوارع الضيقة والمتعرجة بحثًا عن عيادة الطبيب .

وخلال رحلةالبحث تفاجأ صديقته وهى تقود سيارتها بعصفور ميت ملقى على الأرض فتنحرف بسيارتها عنه حتى لا تدوسه وتسقط بها فى حفرة بالطريق فتهتز السيارة بعنف ويبكى الطفل بشدة .

ويودعان المولود عيادة الطبيب فى النهاية . . ويشعران بحاجتهما إلى ما يخفف عنهما اضطرابهما النفسى من أثر ما فعلا ، فيميلان إلى حانة يملكها أحد معارفهما . . ويتحدث إليه عصفور عن نفسه فيقول له : أنا ضائع . . وخائف ، وأحاول الهروب من كل شىء !

أما صديقته فتتحدث عن الإثارة والغموض وحياة المغامرة التى سيعيشانها فى أفريقيا خلال وقت قريب . . فتفاجأ بعصفور وقد تغيرت ملامح وجهه فجأة واكتسبت هيئة جادة غريبة يعلنها بتصميم أنه سيسترد طفله من عيادة الطبيب المشبوه ، ويعيده إلى المستشفى لإجراء الجراحة له مهما كانت نتائجها ، وتجادله صديقته فى جدوى ذلك وتأثيره على خططهما . . وتذكره بأنها شريكته حتى فى جريمة إضعاف المولود لقتله . . فيجيبها بمرارة : أتذكرين حين انحرفت بسيارتك إلى الحفرة حتى لا تدوسى عصفوراً ميتًا فى الطريق ؟ . . هل هذا ما يفعله شخص مُقدم على قتل وليد ؟

كأنما يلومها على موافقته على قتل طفله بلا شفقة ليعيشا حياة لاهية وهى التى لم تطق وطء عصفور ميت ، ثم يشرح عصفور نفسه أخيراً فيقول : منذ وُلد هذا الطفل وأنا لا أكف عن الهرب من المشكلة بدلاً من مواجهتها ، فإذا أردت أن أواجه هذا «المسخ» بشرف بدلاً من الفرار منه فإما أن أقتله بيدى ، وإما أن أقبل به وأتحمل مسئوليتى عنه . وأرعاه أيا كانت حالته ، ولقد قررت أن أكف عن الهرب وأن أتحمل مسئوليتى عنه .

وبالفعل يستعيد عصفور طفله الوليد من عيادة الطبيب ويعيده إلى المستشفى ويدفع تكاليف الجراحة ويتم إجراؤها له ويتبرع لوليده خلالها بكميات كبيرة من دمه ، ويتبين أن الطفل ليس مصابًا بفتق فى المخ كما كان الظن ، وإنما بورم حميد تمت إزالته فتضاءل حجم النتوء البارز من رأسه حتى أصبح لا يكاد يُرى بالعين المجردة ، وبعد

أسبوعين بدأ الطفل يستعيد هيئته البشرية إلى حد كبير وبدا الجميع يلاحظون شبهه بأبيه .

وفى المستشفى يقول الأستاذ الجامعى لزوج ابنته : لقد عرفتَ كيف تواجه المشكلة هذه المرة ولا تهرب منها يا عصفور .

فيجيبه متفكراً بأنه يبدو أن الواقع قد يرغم الإنسان أحيانًا على أن يحيا بطريقة صحيحة حين يعيشه ويكف عن خداع نفسه ، ولهذا فقد قرر أن «يعكس» حلم العمل كمرشد سياحى فى أفريقيا ويبقى إلى جوار أسرته ويعمل مرشداً سياحيًا للسياح الأجانب فى بلده ، إذ أن هذا ما يمليه عليه واجبه ومسئوليته تجاه ابنه وزوجته ونفسه .

ويُصغى الأستاذ الجامعى لما يقوله زوج ابنته بارتياح شديد ثم يقول له بإعجاب : لقد تغيرت كثيراً خلال الأسابيع الماضية ولم تعد هذه التسمية الصبيانية «عصفور» .. تناسبك الآن !

هذه هى الرواية الجميلة التى قرأتها خلال الأيام الماضية واستغرقتنى أحداثها وشخصياتها فأثارت تأملاتى عن «العصفور» الذى يكمن داخل كل إنسان ويوسوس له فى بعض الأحيان أن يتخلص من كل «القيود».. ويحلق فى السماء حرًا طليقًا متحرراً من كل الالتزامات والمسئوليات وأن يحيا حياته كما يريدها لنفسه وليس كما جرت بها المقادير.. فإذا قابلته مشكلة من المشاكل لا يجهد نفسه بمواجهتها وتحمل تبعات المواجهة ، وإنما «يطير» من أرض المشاكل ، ليحط فى مكان آخر ، لا مشاكل فيه ولا عناء ، وهكذا إلى ما لا نهاية ..

وهو خاطر يكاد لا يخلو منه عقل إنسان حتى قادة الجيوش أثناء احتدام المعارك ، لكن قليلين فقط هم من يستسلمون له فيحكمون على أنفسهم بحياة الهاربين . . يستمتعون نعم .. ولكن يعانون أيضًا من انعدام الجذور وندرة الروابط الحقيقية التى تربطهم بالحياة .. أما الآخرون وهم الأغلبية العظمى من البشر . فهم يحتفظون بهذا العصفور فى مخيلتهم ولا يرون بأسًا من مداعبته من حين إلى آخر ترويحًا عن النفس إذا اشتد كربها بهموم الحياة .. لكنهم أبدًا لا يستسلمون له ويفضّلون دائمًا مواجهة مشاكل الحياة وتحمل عواقب هذه المواجهة بشرف .. ويعرفون جيدًا أن الهروب لا يجدى وحياة العصافير لا تحل مشكلة .. ولا تغير أمرًا واقعًا ، وإنما يبدأ الإنسان أولى خطواته الصحيحة على الطريق إلى حل مشاكله حين يكف عن خداع نفسه .. ويواجه متاعبه .

هذا هو «الدرس» الذى خرجت به من هذه الرواية الممتعة التى ترجمها الأستاذ صبرى أبو الفضل ترجمة راقية وعكست تجربة المؤلف اليابانى الشخصية حين رزق بطفل متخلّف فكان له أكبر الأثر على أدبه .

أما «الذكرى» التى ذكرتنى بذلك الفيلم القديم عن الزوجة الحالمة التى تتأثر بشخصيات ما تشاهده من أفلام ، فسوف أحكيها لك بلا خجل تاركًا الحكم عليها لإنصافك ، فلقد كنت أقرأ هذه الرواية فى فراشى منذ أيام إلى أن غلبنى النوم وسقط الكتاب من يدى كالعادة ، فكان آخر ما قرأته منها تلك الليلة هو وصف الكاتب الدقيق إلى حد الإبداع لحالة الغثيان التى انتابت بطل الرواية ، والتقلصات المؤلمة

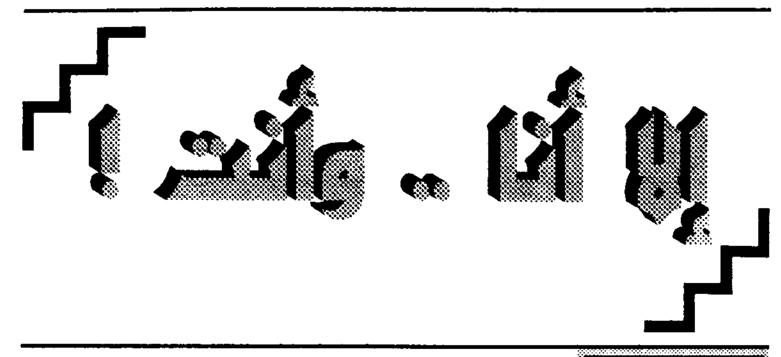
التى أحس بها فى معدته .. والآلام الرهيبة التى أحسها وهو يفرغ جوفه عدة مرات فى الصباح ، ثم في الفصل الدراسى ، ثم رحت فى النوم وصحوت فى الصباح - صدقنى - على تقلصات شديدة فى معدتى أنا وليس معدة بطل الرواية ، وغثيان مؤلم وخانق وهرولت إلى الحمام ، حيث تكرر المشهد الذى قرأته قبل ساعات بكل تفاصيله الموجعة .. وأمضيت نهار ذلك اليوم سقيمًا مريضًا .

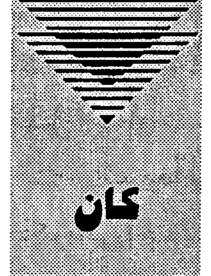
فإذا قلت لى : إنها مصادفة غريبة وإننى لابد أنى قد طعمت شيئًا ملوثًا فى الخارج فحدث ما حدث . أجبتك بأننى أعيش على الطعام المسلوق ولا أكاد أتذوق شيئًا خارج بيتى ، إلا للضرورة الاجتماعية القصوى ولم أكن مدعوا أو داعيًا فى الليلة السابقة إلى غداء أو عشاء خارج بيتى .. فمن أين جاءنى هذا الغثيان القاتل ؟

لقد استشرت طبيبًا فى الأمراض الباطنة فيما حدث لى فلم يجد تفسيراً عضويًا له .. وأكد لى أن التفسير الوحيد له هو تأثر عقلى الباطن بأحداث الرواية .. ومشهد الغثيان الذى أجاد الكاتب تصويره بدقة إلى حد الإبداع .. وأن هذا العامل النفسى وحده يمكن أن يكون له هذا الأثر .

هذا هو تفسير الطبيب الباطنى .. فهل ترى أن الوقت قد تأخر كثيراً على استشارة الطبيب النفسى ؟






لى فى بداية شبابى زميل . . حكمت عليه بعد قليل من اقترابى منه بأنه «معجزة» مخالفة لأطوار الإنسان الطبيعية ! فالإنسان يولد طفلاً ثم يصبح صبيا فشابًا فكهلاً فشيخًا . أما زميلى فلقد ولد أغلب الظن «كهلاً» وثبت على ذلك منذ مولده إلى أن تعرفت به وهو فى العشرينيات من عمره فملامح وجهه مهمومة وممتعضة دائمًا وعيناه منطفئتان لا أثر لحيوية الشباب ومرحه فيهما . . وروحه خامدة وفاترة تجاه كل الأشياء . . وحركته بطيئة ورغبته فى الحياة منعدمة . . أما حديثه فخيرٌ منه السكوت ، فهو لا يتكلم - إذا تكلم - إلا ليعلِّق على حديث زميل آخر بما يلقى ماء باردًا على روحه وحماسه للعمل والحياة ، فإذا كان أحدنا يتحدث عن عمل نجح فى أدائه وسعد

بنجاحه فى ذلك ، نظر إليه فى فتور وقنوط وضيق وقال له عبارته الشهيرة . . وإيه يعنى؟ أو ماذا يساوى ذلك ؟

وإذا كان أحدنا يتحدث عن أمل يراوده فى عمله أو حياته ويسعى بجد إلى تحقيقه ، أطلق فى وجهه عبارته المقتضبة الكئيبة : وماذا سيحدث حتى لو حققت ذلك . . هل ستصعد الجبل أو ستحصل على تاج الجزيرة ؟

أما إذا سمع أحدنا يتحدث بإعجاب عن أستاذ له فى العمل أو الحياة ، أو يذكر إنسانًا بخير . . أو يحكى عن فضل أحد أو علمه أو كرم أخلاقه فإنه سوف يصمت مكتئبًا بعض الوقت . . ثم يبدأ فى حديث طويل عن نفس هذا الشخص الذى جاء ذكره فى الحديث و«يكشف» بما أتيح له من علم ببواطن الأمور ، «حقيقته» وكيف أنه إنسان مزيف . . وغير أمين . . ويسرق جهد الآخرين و . . . و . . ، فإذا سألته وكيف عرفت عنه ذلك وأنت لم تحتكّ به ولم تتعامل معه ؟ أجابك بأنه يعرف ما لا تعرفه أنت ، ثم يسخر من سذاجتك وتوسمك الطيبة والأخلاق الكريمة فى هؤلاء الأوغاد فى حين أن كل الناس فاسدون وأشرار ما عدا هو ومن «يستمع» إليه بالصدفة فى هذه اللحظة ! أى أنا وأنت فقط والباقى جميعًا من الأوغاد ! وحين تكررت زياراته لجلستنا الليلية وتضاعفت جرعة السموم التى ينفثها فى جو سهرتنا . . بدأت أشعر بعد قليل من انضمامه إلينا بالصداع

وضيق التنفس . . وآلام الظهر . . وبدلاً من أن أنهض من جلستنا كل ليلة باسمًا مقبلاً على الحياة وآملا فى الغد وجدت نفسى بعد قليل أغادر الجلسة خامد الروح غير متحمس لأى شىء . . وأذهب إلى عملى فى الصباح متباطئًا وفاقدًا لحماسى السابق . . وتحيرت فيما أصاب روحى من جمود وفتور وتداولت فى الأمر مع صديقين لى فإذا بهما يشكوان لى من نفس هذه «الأعراض» ومن فتورها تجاه العمل والحياة ، وكعادتنا فيما يعرض لنا من مشاكل تأملنا الظاهرة وحاولنا تحليل أسبابها واجتهد كل و احد منا فى تفسيرها . . فقال أحد الصديقين أنه «الجو العام» فى العمل الذى يثير الإحباط . . وقال الصديق الآخر أنه ربما يكون «اكتئاب الشتاء» الذى يصيب الروح أحيانًا مع الغيوم والأمطار والبرد الذى يقيد حركتنا فى المساء على عكس مرح الصيف ولياليه الممتعة .

لكنى لم أقتنع بذلك وتفكرت طويلاً فيما قالاه ثم وجدت نفسى أهتف فجأة : لا إنه ليس جو العمل . . ولا غيوم الشتاء . . إنه زميلنا اليائس من كل شىء فلان !

ونظر الصديقان إلىّ مندهشينْ فواصلت حديثى بانفعال : نعم إنه «فلان» . . فهو بؤرة اكتئاب متحركة تنفث كآبتها وفتورها ويأسها وكراهيتها للبشر فى دائرة قطرها نصف ميل !

ومن يدخل دائرة إشعاعاتها الاكتئابية يجد نفسه بعد قليل خامد الروح كارهًا للجميع . . ومكتفيًا من العمل والكفاح بنقد أعمال الآخرين وانتقاص أقدارهم . . ومتوجسًا من الجميع ومستريبا فيهم . . وفاقدًا للحيوية والنشاط ، وشاعرًا بالصداع وكل الآلام لأنه قد بدد طاقته النفسية فى اليأس والإحباط وكراهية الآخرين . . وهذا هو الباب الملكى للصداع والقلق وتوتر الأعصاب الدائم .

وأسهبت فى الدفاع عن نظريتى . . وقلت للصديقين إن كاره الإنسان لا يصلح أن يكون صديقًا ولا إنسانًا ناجحًا فى عمله أو فى حياته الخاصة ، ولا يستفيد منه من يعرفه شيئًا سوى تسميم روحه بالعداء للبشر . . وسوء الظن فيهم . . وتوقع الشر قبل الخير منهم إلى جانب تشويه القيم وإنكار فضائل الآخرين . . وتكبيل إرادة الإنسان بهذه الأفكار السلبية التى تؤثر على حماسه للعمل . . ولا تؤدى به فى النهاية إلا للانضمام إلى طابور العجزة . . والحاقدين وكارهى البشروأعداء النجاح ، وخلُصت من «مرافعتى» إلى نتيجة حاسمة هى إننا يجب أن نحمى أرواحنا من إشعاعات هذا الزميل الاكتئابية الحادة ويجب أن نتجنبه كما يتجنب الإنسان مصدر العدوى . . ونقصيه عن جلستنا وحياتنا قبل أن يفسدها .

ولم أكن مغاليًا فيما قلت ولا فيما اتخذت بعد ذلك من قرار شخصى صارم التزمت به مع هذا الزميل ومع أمثاله بقية رحلة

العمر . . وهو أن أفرّ منهم فرار السليم من الأجرب وأنفر من صداقتهم لكى أنجو من إشعاعاتهم المدمرة . . ولا عجب فى ذلك .

فالحيوية والحماس واليقظة الروحية عدوى ، وخمود الروح وفتور الإرادة . . وقلة التحمس للأشياء والحياة عدوى أيضًا !

واختلاط الإنسان بأصحاب هذه الصفات وتلك واقترابه الشديد منهم يؤثر عليه بغير أن يتنبه لذلك ويكسبه رغمًا عنه بعض صفاتهم إن لم يحترس لنفسه ، لهذا فقد قال الكاتب الأمريكى إيمرسون : إننى أنشدُ صديقًا يحفزنى بحماسه للحياة ، على أن أصنع ما أستطيع صُنعه ، ولست أريد صديقًا يثبط عزيمتى بخمود روحه ويأسه من كل شئ فأنكص عن أداء ما أستطيع أداءه لو تحليت بصفة الحماس !

وفى كتابه الممتع «سجن العمر» يروى توفيق الحكيم أنه كان يستذكر دروسه فى كلية الحقوق فى الليل فيشعر بالتعب ويهم بغلق كتابه والذهاب إلى فراشه فينظر من نافذته ، فيرى نافذة زميل له ، بنفس الكلية مازالت مضيئة رغم تأخر الوقت . . ومازال الزميل منكبًا على دروسه . . فيستعيد على الفور بعض نشاطه ويقاوم التعب ويواصل استذكار دروسه . . ويقول أنه لو كان زميله هذا متكاسلاً أو مهملاً لواجباته لقدّم له الإغراء المعنوى بأن يكتفى هو أيضًا بما حصل من دروس ويستسلم لإغراء الراحة والكسل لكن زميله هذا لم يكن

من هذا النوع ، بل كان أحد نوابغ القانون الذين عرفتهم مصر ، فقد كان د. حلمى بهجت بدوى أستاذ الحقوق أول من شغل منصب رئيس شركة قناة السويس بعد تأميمها .

وهكذا يفعل الحماس والغيرة الإيجابية بالإنسان فالغيرة الإيجابية هى أن يحفزك حماس المتحمسين لأن تبذل المزيد من الجهد لبلوغ أهدافك كما بلغوها هم . أما الغيرة السلبية فهى أن تضيق بما حققه الآخرون لأنفسهم بكفاحهم وعرقهم وتتمناه لنفسك دون أن تبذل قطرة عرق واحدة فى سبيله .

وهذه الغيرة الإيجابية هى التى كان يقصدها الفنان الأسبانى العظيم سلفادور دالى حين قال : الغيرة من الفنانين الآخرين كانت دائمًا دافعًا قويًا لنجاحى !

والناجحون الحقيقيون هم هؤلاء الأشخاص الذين يحتفظون بقدرتهم على الحماس للحياة حتى النهاية ، والذين يحددون أهدافهم بوضوح ويسعون وراءها بدأب «كما يسعى القط وراء الفأر الذى يطارده» على حد تعبير بنجامين فرانكلين ، ذلك أن من يعرف ما يريد لا تهزه الصدمات ولا يفقده الفشل شجاعته وإيمانه بربه ونفسه وقدراته ، وإنما يحفزه الفشل إلى تكرار المحاولة مرة بعد أخرى أملاً فى بلوغ الأهداف .

وأهداف الحياة تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر . . لذلك فمن المفيد دائمًا أن يحدد الإنسان لكل مرحله من مراحل عمره هدفًا رئيسيًا يسعى إليه . . ويركز معظم جهده عليه . . فالطالب ينبغى أن يكون هدفه إنهاء تعليمه بنجاح . . والخريج ينبغى أن يكون هدفه الحصول على عمل ملائم ، وصنع مقومات حياته الشخصية وكلما حقق الإنسان هدفًا جليلاً من أهداف حياته . . وضع لنفسه هدفًا آخر قريبًا ومتلائمًا مع إمكانياته واستثمر حماسه للسعى وراءه . . فالتوقف عن الأمل فى شىء أو السعى وراءه لا يعنى كما يقول الأديب الأيرلندى العظيم برناردشو « إلا » انتهاء مأمورية الإنسان فى الحياة بحيث لا يصبح صالحًا بعدها لشىء سوى للموت » !

ولكى يحقق الإنسان أهدافه هدفًا بعد هدف ، عليه أن يتجنب اليأس والإحباط ، وصحبة فاقدى الحماس وكا رهى الإنسان والبشر وأن يتعلق دائمًا بالأمل فى الله وفى الحياة والمستقبل . فالذين يعيشون بإحساس أنه ليس هناك «غد أفضل» . . لا يجدون بالفعل هذا الغد حتى حين يصلون إليه ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يستحقوه ، أما الذين يومنون مع مرجريت ميتشل مؤلفة رواية ذهب مع الريح بأن «فى الغد دائمًا متسع لكل شىء» فإنهم لا تفتر إرادتهم للحياة ولا يتراخون فى السعى وراء أهدافهم ، فإما أن يحققوها ويسعدو بذلك وإما أن ينالوا لذة العيش فى حماس وأمل حتى آخر لحظة من عمرهم !

ولن يحتفظ الإنسان بإيمانه بالحياة وتفاؤله إلا إذا صاحب فى الدنيا أهل القيم الأخلاقية والدينية والفضائل الإنسانية ومن يحبون الإنسان ويتوسمون فيه الخير قبل الشر ويأخذون أمر أخيهم على أحسنه حتى يأتيهم منه ما يغير رأيهم فيه ، فهؤلاء هم « إخوان الصدق الذين نصحك العظيم عمر بن الخطاب بأن تعيش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وعُدة فى البلاء » ، كما نصحك أيضًا «بألا تصحب الفجَّار فتتعلم من فجورهم » .

وأسوأ من اليأس والإحباط وصحبة فاترى الحماس وكارهى الإنسان أن تبدأ عملاً ولا تتمه على الوجه الأكمل ، أو أن تتخبط فى طرق الحياة فتمضى فى هذا الطريق بضع خطوات ثم تتوقف وترجع من حيث بدأت وتمضى فى طريق آخر بضع خطوات ثم تتوقف وهكذا . . فمن يعرف أهدافه بوضوح لابد له أن يمضى إلى غايته حتى النهاية ، واللمسة الأخيرة السليمة فى كل عمل أهم دائمًا من خطوة البداية ، لأنها هى التى تترجم كل ما بذلت من جهد فى تحقيق الهدف النهائى . . والشاعر العربى يقول :

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

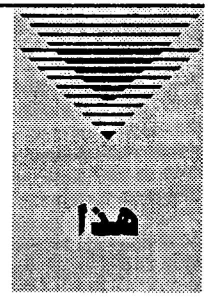
وتاريخ الأدب الإنجليزى يروى لنا أن الشاعر كولريدج قد خلف وراءه عددًا هائلاً من القصائد والأبحاث التى بدأها ولم يتمها أو تحول

عنها فبدأ غيرها ولم يتمها أيضًا ، فبدد بذلك جهدًا ثمينا . . وأفسد أعمالاً كانت جديرة بأن تخدم الإنسانية وتزيد من نجاحه ، والعمل الناقص فى النهاية كالعمل الفاشل سواء بسواء . . وكلاهما مرجعه إلى عدم وضوح الأهداف وفتور همة الإنسان التى لو تعلقت «بالثريا» لنالها كما يقول لنا الرسول الأمين «ﷺ» .

أما ذلك الزميل كاره البشر الذى نبهنا مبكرًا لهذا الخطر الجسيم على أرواحنا . . فقد ظل «كهلاً» فى روحه وجسمه وملامحه ، حتى بادره الهرم مبكرًا وهو فى بداية الثلاثين وتسللت تجاعيد روحه إلى وجهه . . فازدادت امتعاضًا وتغضنًا وكآبةً . . وتسلل الشعر الأبيض إلى «فوديه» . وهو فى الثلاثين فصار كهلاً روحاً وشكلاً . . وقابلته آخر مرة بالصدفة وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره فرأيته «شيخًا» متهدمًا متجعد الوجه أشيب الشعر كابى النظرة . . فلم أملك نفسى من أن أسأله مداعبًا : ما هو سر احتفاظك «بشبابك» حتى الآن ؟!






سر لا أخجل منه . . وإنما أعتز به وأفخر ! . . أما السر فهو أننى أعيش «عالةً» على أصدقائى فيما أكتب وأصدر من كتب ، ولولاهم لما كتبت نصف ما كتبت ، ولما أصدرت بعض ما أصدرت من كتب بلغت حتى الآن ٢٦ كتابًا !

أما كيف «يعولنى» أصدقائى فيما أكتب من مقالات وقصص قصيرة وصور أدبية ، فدعنى أشرح لك الحكاية من بدايتها .

الحكاية أننى من كُتّاب «العصر الحجرى» الذين لا يألفون الكتابة ولا تنساب أفكارهم على الورق إلا إذا أمسكوا القلم بأيديهم وسجلوا ما يفكرون فيه بخطهم .

الكتاب المعاصرون يدقون بأصابعهم على الآلة الكاتبة ما يعنُّ لهم من أفكار ، وبعضهم انتقل منذ سنوات من مرحلة «الدق» إلى مرحلة

«اللمس» باستخدام أجهزة الكمبيوتر الحديثة التى لا تحتاج لأكثر من لمسة لمفاتيحها ، وبعضهم الآخر تجاوز الآن مرحلة «اللمس» إلى مرحلة «الهمس» وأصبح يهمس بأفكاره وهو مستلق على أريكة مريحة إلى آلة التسجيل الصغيرة ، ثم تقوم سكرتيرةٌ عنه بتفريغ الشرائط وكتابتها على الآلة الكاتبة وتعرضها عليه فيراجعها ويوقعها بإمضائه . . فتصير مقالاً أو قصة قصيرة !

وأنا مازلت حتى الآن لا أستطيع الكتابة إلا بالقلم وأعيد كتابة المقال الواحد مرتين وأحيانًا ثلاث مرات وأراجعه بعد كتابته على الآلة الكاتبة بواسطة سكرتيرتى واعدّل وأبدل فيه وأشطب منه وأزيد فيه ، بخط يدى !

ولقد جرّبتُ الكتابة على الآلة الكاتبة فوجدت أفكارى تتشتت وتتركز غالبًا حول أصابعى . . وليس حول ما أريد الكتابة عنه .

وجربت الهمس لجهاز التسجيل أو إملاء من يكتب عنى ما أريد كتابته ، فوجدت أفكارى تتقطع وتتعثر والكلمات والتعبيرات تراوغنى وتتهرب منى .

وتعجبت كيف يستطيع بعض الأدباء إملاء أفكارهم لغيرهم مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بالقدرة على ترتيب الأفكار وخصوصية الأسلوب . وقد أملى أبو العلاء المعرى كل أشعاره وتصانيفه الأدبية لتلاميذه ، وأملى إسماعيل البغدادى القالى وكان عالمًا لغويًا عظيمًا ولد فى أرمنيا ومات فى قرطبة عام ٩٦٧م ، كل تصانيفه لغيره وأشهرها كتاب «الأمالى» الذى تحيرت طويلاً خلال صباى فى فهم

معنى عنوانه ، إلى أن عرفت فيما بعد أنه جمع كلمة «إملاء» . وأملى عميد الأدب العربى طه حسين كل مؤلفاته وأعماله الأدبية لغيره ، وكان أكثر من كتب عنه ولسنوات طويلة هو سكرتيره الراحل فريد شحاته أما عميد الأدب الساخر محمود السعدنى فهو يملى بعض مقالاته على غيره ، ويكتب بيده بعضها الآخر حين لا يجد من يملى عليه وبخط يصعب على كثيرين قراءته ! وقد زرته ذات مرة فى الصيف فى شقته بلندن فوجدته يملى على ابنه أكرم مقالاً له ، وتعجبت لقدرته على ترتيب الأفكار بغير أن يمسك القلم بيده . . وعجبت أكثر لانفعاله وتركيزه الشديد فى إملاء المقال ذاهلاً عما حوله كإنما يخشى أن تفر منه الفكرة إذا تلفت حوله للحظات ، ولفت نظرى أيضًا أنه يملى على ابنه إلى جانب الكلمات . . النقطة والفاصلة . . وعلامة الاستفهام . . وعلامة التعجب !

أما إذا كتب بيده فإنه يكتب بقلم الحبر الجاف ولا أعرف كيف يحتمل الكتابة به لفترة طويلة بل ولا أعرف أيضًا كيف كان العقاد العملاق يكتب مؤلفاته بالقلم الرصاص مع خشونته وصعوبة الكتابة به لفترة طويلة ولا كيف يحتمل ذلك الآن صديقى أحمد بهجت .

أما أنا فلم أستطع أبدًا الاسترسال فى إملاء أحد ما أريد التعبير عنه لأكثر من بضع عبارات ثم توقفت يائسًا من المحاولة ، ولم أستطع أبدًا أن أستسيغ الكتابة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ويئست من محاولة التعبير عن نفسى بهذه الطريقة .

وبعد تجارب ومحاولات عديدة سلّمت بأن الأفكار والكلمات لا تطاوعنى إلا إذا كتبت ما أريد كتابته بخط يدى وبقلم الحبر السائل وعلى ورق أصفر ناعم ! فحتى أقلام الفلوماستر التى تسهل الكتابة وتيسرها لا أستطيع الكتابة بها ولا أستخدمها إلا فى مراجعة الأعمال الصحفية .

أما الكتابة الأدبية . . فلا وسيلة لها عندى سوى هذه الأدوات الحجرية . . وسوى هذه الطقوس «البائدة» ، وهى أن يكون القلم من طراز شيفرز وسنّه متوسط السمك ليس رفيعًا ولا سميكًا ، ومداده من حبر باركر الأزرق الغامق . . ولو كان فاتحًا لما استرسلت فى الكتابة ولو كان أسود قاتمًا لتوقفت عنها بعد بضعة سطور . أما الورق فلابد يكون أصفر اللون ناعمًا ولا أعرف كيف استقريت على هذه الطقوس ولا كيف ترسخت وارتبطت عندى بسهولة الكتابة حتى ليفسد مزاجى إذا افتقدت أحدها .

ومن هذه النقطة بدأ دور أصدقائى المقيمين خارج مصر وما أكثرهم والحمد لله . . فى إنتاجى الأدبى !

فالحبر الأزرق الغامق من ماركة باركر ليس مسموحًا باستيراده فى مصر لوجود البديل من الإنتاج المحلى الذى لم أستطع استساغته ، والورق الأصفر الناعم لا يتوافر كثيرًا فى الأسواق المحلية . أما القهوة الفرنسية أو الإيطالية «الإكسبريسو» التى لا أحتسى سواها خلال الكتابة . . فليست أيضًا شائعة فى الأسواق .

ولا أدرى كيف علم أصدقائى خارج مصر بكل ذلك فتطوعوا مشكورين لتوريد كل مستلزمات الكتابة ، وتوالت علىّ هداياهم الكريمة منها . .

ولأنه : خير الهدايا ما يجئ مع الهوى

من غير ما طلب ولا إطناب

كما يقول الشاعر عبد الحليم المصرى (١٨٨٧ - ١٩٢٢) .

فلقد سعدت كثيراً بهداياهم هذه التى تجيء «مع الهوى» وتلبى رغبات وتحكمات عرائس الأفكار فى شخصى الضعيف .

وأصبح أصدقائى ومنذ سنوات طويلة لا يرجع أحدهم إلى مصر إلا وفى حقيبته لى بعض رزم الورق الأصفر أو بعض زجاجات الحبر الباركر أو بعض أكياس القهوة الفرنسية والإيطالية !

ومع أن أقلام الشيفرز متوفرة فى الأسواق المحلية فإنه لا يمضى عام إلا ويتحفنى أحدهم بقلم جديد متمنيًا لى كتابةً طيبةً ومريحةً به !

وعلى مدى سنوات طويلة ، فإنى لم أشعر أبدًا بالخوف من نفاد الاحتياطى «الاستراتيجى» عندى من الورق أو الحبر أو القهوة !

إذ ما أن تتناقص كميات أحد هذه المستلزمات بعض الشيء إلا وأفاجأ «بالفرج» قادمًا مع صديق عائد من الخارج أو مع رسول أمين أوفده أحد الأصدقاء المخلصين بشحنة إنقاذ جديدة !

وشاع ذلك بين أصدقائى فاستراحوا . . وأراحوا إذ عرف كل منهم أنه إذا رغب فى أن يقدم لى هدية فلن يجد أفضل من هذه الهدايا

«الأدبية» التى تُعيننى على الكتابة والتى أسعد بها أكثر من أى شىء آخر .

حتى لقد جاء صديق مقيم بالبحرين إلى مكتبى بالأهرام ذات يوم طالبًا مقابلتى ، ولم تكن سكرتيرتى تعرفه ، وفشل هو فى إقناعها بأنه صديق شخصى لى فتمسكت بأن تحدد له موعداً بعد يومين ، وهمَّ هو بالانصراف يائسًا لكنه قبل أن يتحرَّك طلب منها أن تبلغنى فقط بأن فلانًا «بتاع الورق الأصفر» كان قد جاء لمقابلتى وانصرف ! فما أن نطق «بكلمة السر» هذه حتى تشبثت به سكرتيرتى راجيةً منه عدم الانصراف ودخلت لتبلغنى بمقدمه السعيد فانتفضتُ واقفًا تحيةً للصديق . . وللورق الأصفر !

وكلما راجعت مخزونى الاستراتيجى من الورق والحبر والقهوة شعرت بالامتنان الشديد لأصدقائى وتساءلت صادقًا ترى ماذا كنت فاعلاً بحياتى لو لم ينعم علىّ ربىّ بصداقة كل هؤلاء الأحباء ؟

صحيح أننى أبدو بعد انتهاء جلسة الكتابة الطويلة كعامل من عمال مصبغة لصبغ الملابس «بالنيلة» الزرقاء ، وأن أصابعى تتلطخ بالحبر . . وملابسى لا تخلو أبدًا من بقعة زرقاء خصوصًا وأننى أفتح زجاجة الحبر أمامى وأغمس القلم فيها كما لو كان ريشة . لكن كل شىء يهون فى سبيل أن ترضى عرائس الإلهام وتتعطف فتسلمنى زمامها . . وتسيل أفكارى على الورق .

ولأن الحذر لا يُغنى أبدًا عن قدر ، فلطالما قررت الاحتراس من بقع الحبر حتى لا تلوث ملابسى وأصابعى وبدأت الكتابة متنبهًا وحريصًا ، فما أن أمضى فيها بعض الوقت حتى تستغرقنى تمامًا وأُذهل عما حولى ، وتنتهى الجلسة بعد ٥ أو ٦ ساعات فأفاجأ بأن كل ما تحرزت منه قد وقع ، وتسرب الحبر إلى أصابعى . . وتسللت بقعة أو اثنتان إلى ملابسى ، ولولا أننى أكتب فى البيت وليس فى مقر العمل ، لما استطعت مواجهة أحد بمظهر عمال الصباغة هذا عقب كتابة كل مقال .

فإذا سخطتُ على غفلتى وذهولى ، وأنا أغسل أصابعى وأحكها لإزالة آثار الحبر منها بعد الكتابة ، هوّنت الأمر على نفسى بأن ما فعله بى الذهول ، والاستغراق فى الكتابة أهون كثيرًا مما فعله بأعظم عالم رياضى فى العصور القديمة وهو أرشميدس السراقوسى ، فقد روى المؤرخ بلوتارك ، أنه خلال حصار الرومان لمدينة سراقوسة أو «سيركوزا» كان أرشميدس منكبًا على حل مسألة رياضية فلم يحفل بسقوط المدينة ، ودخل عليه جندى رومانى وأمره بأن يتبعه إلى مقر القائد . . ومع ذهوله واستغراقه الشديد فى حل المسألة الرياضية رفض أرشميدس أن يتحرك من مكانه إلا بعد أن يتوصل لحل لمسألته فغضب الجندى الرومانى الأحمق واستل سيفه وقتله به . . وقضى بذلك على حياة واحد من أعظم علماء العصور القديمة وأكثرهم خدمة للإنسانية .

فإذا كان الأمر كذلك . . فما أهون بقعة حبر هنا أو هناك فى الملابس ، وما أهون تلوث الأصابع لبعض الوقت بالحبر بالمقارنة لما حدث لصديقى أرشميدس .

ولكل عروس مهرها فى النهاية ومهر عرائس الإلهام والأفكار عندى هو هذه الطقوس والأدوات الحجرية للكتابة .

ولقد كفانى أصدقائى - أدامهم الله لى - مئونتها وتباروا فى إمدادى بها بانتظام فضلاً منهم وكرمًا .

أفلا أكون صادقًا إذن إذا قلت لك إننى أعيش «عالةً» على أصدقائى فيما أكتب وأنشر من إنتاج أدبى ؟

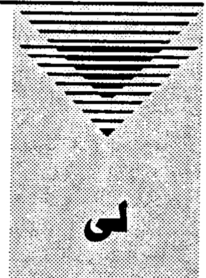
وألا يحق لى بعد ذلك أن أنسب الفضل لأصحاب الفضل وأشكرهم عليه مؤديًا بذلك واجبًا دينيًا وأخلاقيًا هو شكر كل من يستحق الشكر على صنيعه ؟

وألم يقل بعض الحكماء : إذا اصطنعتَ المعروف فاكتمه وإذا اصطُنِع إليك فانشره ؟

ها أنذا «أنشره» وأقرُّ بالفضل لكل الأصدقاء وأريد أن أقول لك عنهم الكثير والكثير مما يستحقونه ويستحقون أكثر منه لكنى مضطر لأن أتوقف عن الكتابة الآن للأسف لكى أغسل أصابعى وأبدّل ملابسى فعفواً لهذا التقصير منى . . وشكراً لكل الأحباب !



# الذعر .. يا صديقى !



لى صديق متين البنيان عملاق الطول له نصيب من هيئة المصارعين . . وأبطال كمال الأجسام . . ولو صارع شخصًا لهزمه بالأكتاف فى لحظات . . ورغم كل ذلك فلقد كان معروفا بيننا بشىء عجيب هو أنه يرتعب من القطط رعبًا شديدًا يشل حركته ويسيل العرق البارد على وجهه ويزيد من ضربات قلبه !

فإذا عبرت بجواره - وأنت تتحدث إليه - قطة صغيرة اختلس إليها النظر فى خوف وترقب إلى أن تمضى القطة فى طريقها بسلام . . أما إذا كانت القطة من النوع الودود وتمسحت فى أقدامه كما تفعل بعض القطط أحيانًا . . فلسوف يصفر وجهه . . ويسيل العرق من جبهته ويظل متجمدًا فى موقعه إلى أن «ترحمه» هذه القطة وتبتعد عنه! وقد روى لى مرة أنه رجع إلى بيته ذات ليلة متأخرًا قبل أن يتزوج

فوجد قطًا رابضًا أمام باب مسكنه فتحير صديقى كيف يدخل شقته وهذا «الوحش» الضارى يسد عليه الطريق ؟ . . وخيل إليه أنه لو تقدم إلى الأمام خطوة لاستنفره للهجوم عليه . . ولو تراجع عنه إلى الوراء خطوة لأغراه بمطاردته واللحاق به فهداه عقل الخائف إلى أن أفضل ما يفعل هو أن «يثبت» فى موقعه بلا أى حركة . معلنًا بذلك نواياه السليمة تجاهه ، إلى أن تتدخل السماء للفصل بينهما ، فترى كم من الوقت ظل صديقى «محنطًا» فى موقعه أمام هذا القط البليد الذى لم يحرك ساكنا ؟ نصف ساعة كاملة مضت وصديقى واقف فى هدوء تام وبلا ملل . والقط رابض فى مكانه آمنًا مطمئنًا ، وقد حاول صديقى خلال هذه الفترة مرة واحدة أن يستجمع شجاعته ويتسلل فى حذر من جوار القط إلى باب الشقة . . فما أن همَّ بالحركة حتى استشعر القط الخطر ، فزام زومة مخيفة . . وانتصب ظهره ، واتسعت حدقتا عينيه . وكان ذلك كافيًا تمامًا لأن يبث الرعب فى قلب صديقى المصارع ويعيده إلى موقف الثبات فى موقعه يائسًا من المحاولة وظل موقف اللاسلم واللاحرب هذا قائمًا ثلاثين دقيقة كاملة وانتهى نهاية مضحكة حين أرسلت العناية الإلهية جارًا لصديقى صعد السلم عائدًا إلى بيته ورأى «الموقف» وكان يعرف عن جاره حكاية هلعه من القطط فضرب القط بالصحيفة التى يحملها فى يده ببساطة وهرول القط خائفًا ومبتعدًا وقال الجار لصديقى وهو يبتسم : تفضل يا أستاذ فلان !

أما صديقى الآخر فهو نموذج أكثر غرابة لتناقضات الإنسان وأحواله العجيبة ، فهو إنسان مغامر بكل ما تعنيه الكلمة من جرأة . . وإقدام وسوء تقدير العواقب . . ولقد شهدت حياته أهوالاً عجيبة فشارك فى صباه فى أعمال المقاومة ضد الإنجليز فى منطقة القناة قبل جلاء القوات البريطانية عن مصر ، وشارك فى شبابه فى أعمال المقاومة الفلسطينية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية وسجن فى أكثر من دولة عربية لمشاركته فى نشاطات المعارضة السياسية بها ، حتى تندر عليه أحد أصدقائه وقال عنه إنه «ضُرب فى كل الدول العربية» كما تضرب العملة ! ورغم ذلك كله فلقد سافرتُ معه ضمن وفد صحفى من نقابة الصحفيين إلى رومانيا عام ١٩٧٢ ، وكانت الطائرة الرومانية صغيرة وقديمة فكثر وقوعها فى المطبات الهوائية خلال الرحلة وكثرت إضاءة لوحة ربط الأحزمة ومنع التدخين ، فإذا بى أسمع من جوارى صوتًا غريبًا كالتكتكة أحتار فى تفسيره وأتلفت حولى لأبحث عن مصدره ، فأرى صديقى المغامر الجالس إلى جوارى تصطك أسنانه فى رعب ، ووجهه أبيض بياض الموت . . والعرق يسيل على وجهه بغزارة . . وعيناه مغمضتان كأنه فى شبه غيبوبة ، وأفزع لما أرى . . وأسأله عمًّا به فلا يستطيع أن يجيبنى لأنه مشغول بالتمتمة بآيات القرآن الكريم ، ولأن اصطكاك أسنانه يحول بينه وبين الكلام . . ويظل على هذا الحال حتى تجتاز الطائرة منطقة المطبات الهوائية ، ويطفىء قائدها لوحة ربط الأحزمة . .

ثم يتكرر المشهد بنفس تفاصيله مع منطقة المطبَّات التالية . . فأعرف منه أن «المغامر» الذى قضى نصف عمره متنقلا بالطائرات من مكان إلى مكان . . لا يخشى شيئًا فى الحياة كما يخشى المطبَّات الهوائية وإضاءة لوحة ربط الأحزمة خلال رحلة الطائرة ! !

وليس هذان الصديقان نموذجين فريدين وحدهما فى تناقضات الإنسان . . ومخاوفه وهواجسه غير المفهومة . فالفيلسوف الألمانى المتشائم شوبنهاور الذى عرف بجرأته الفكرية واحتماله لحياة الوحدة الكاملة حتى نهاية العمر منصرفًا للقراءة والكتابة والإنتاج الفكرى . . لم يكن يخشى سلطان الموروثات الفكرية على العقول والأفكار . . ولا مصادمة الآراء السائدة بما يخالفها من أفكار جريئة جديدة ، لكنه كان يخاف حتى الموت من شىء آخر عجيب هو أمواس الحلاقة ، فلا يأمن أن يسلم ذقنه لأى حلاق «سفاح» لكى يمرر الموس على وجهه ورقبته ، ويفضل أن يقص شعر ذقنه بالمقص فتظل «نابتة» باستمرار ومغطاة بالشعر الخفيف لأن هذا يهدئ من روعه ويعفيه من معاناة الرعب و«السفاح» يشهر فى وجهه مُوسَ الحلاقة !

أما الموسيقار البولندى العبقرى شوبان فقد كان يساوره الخوف دائمًا من أن يصاب بالإغماء أو الغيبوبة فيخطئ من حوله تقدير «الموقف» ويظنونه قد مات ويبدأون فى مراسم الجنازة ثم يدفنونه فى مثواه الأخير فيفيق هو بعد قليل من غيبوبته ويجد نفسه حبيسًا داخل صندوق مغلق ومظلم تحت الأرض فيصرخ ولا مجيب . . ويستغيث

ولا ينقذه أحد ، ولهذا فقد كان يلح دائمًا على أهله وأصدقائه بألا يتعجلوا «الأمور» إذا بدا لهم أنه مات . . وأن يتأكدوا أولا من أنه ليس فى غيبوبة مؤقتة !

ويبدو أن هذه المخاوف نفسها هى التى كانت تساور أيضًا داهية العرب عمرو بن بن العاص ، الذى عرف بسعة الحيلة وشدة المكر والدهاء ، فلقد أوصى أبناءه إذا مات بألا يتعجلوا الانصراف عن قبره بعد دفنه ، وبأن يبقوا إلى جواره «مقدار ذبح جزور وتفصيله» أى مقدار الوقت الذى يستغرقه ذبح جمل وسلخه وتقطيعه ، لعل وعسى أن تعاوده الروح فيستغيث بهم لإخراجه من تحت التراب !

أما الموسيقار الراحل عبد الوهاب فلقد كان يخاف خوفًا مرضيًا من المرض والعدوى . . ولا يصافح مريضًا . . ولا يجلس فى مكان به تيار هواء ، ويضع فى بيته آنية بها مطهر يغمس فيها يديه كلما اضطر لمصافحة ضيف أو زائر كما ظل سنوات طويلة يخشى ركوب الطائرات ويفضل السفر بالباخرة مهما استغرق ذلك من وقت ، وكان يبرر خوفه من السفر بالطائرات بأنه لا يجد أى معنى لأن يقضى وقت السفر الطويل سجينًا فى مقعد ضيق لا يجد ما يفعله ، أو يسليه سوى الحملقة فى «قفا» من يجلس أمامه ، فى حين أن السفر بالباخرة يتيح له حرية الحركة والنوم فى فراش مريح والتجول فوق ظهر الباخرة والتمتع بمنظر أفق البحر !

أما ملك فرنسا هنرى الثالث (١٥٥١ - ١٥٨٩) الذى كانت فترة حكمه سلسلة حروب دينية شبه متصلة ، فلم يكن يخشى ما تسببه له هذه الحروب من قلاقل وعدم استقرار ، بقدر ما كان يخشى شيئًا آخر عجيبًا هو رؤية البيض بكل أنواعه . . ويصرخ فيمن حوله إذا رأى عدة بيضات لكى يخفونها عن ناظريه فى أسرع وقت ممكن !

أما الأديب الشاعر الراحل كامل الشنَّاوى فقد كان يخاف من الليل والظلام ويبحث كل ليلة عمن يسهر معه إلى أن يتبدد الظلام ويشقشق نور الفجر ، ليستطيع أن ينام مطمئنًا إلى أن الموت لن يزوره فى غبشة الظلام والوحدة !

أما الأديب الكبير أنيس منصور فلا يخاف من شىء أكثر من أن يعطس إنسان فى وجوده ، لأن هذه العطسة الإجرامية إنذار شرير له باحتمال انتقال عدوى الأنفلونزا والزكام إليه وهى تكفى وحدها لأن يختفى كلمح البصر من المكان الذى ارتكب فيه أحد هذه الجريمة أمامه !

وهكذا كل إنسان تقريبًا له من مخاوفه وهواجسه الطبيعية وغير الطبيعية ما يشغله ويبدد بعض أمانه واطمئنانه ، والإنسان بصفة عامة يخاف من أشياء كثيرة . . فهو يخاف من المرض والموت والعجز والفقر والتعاسة . . وفقد الأعزاء والأحباء ، ويخاف من الفشل وفقد المكانة الاجتماعية ، وفقد الحب ، ومن الوحدة ، ومن هوان الشأن ، ومن التعرض للأذى . . والتعرض للإهانة . . إلخ .

ولا حد لمخاوف الإنسان ولا لهواجسه ، لكن هناك فارقًا مهمًا بين المخاوف الطبيعية التى لا يخلو منها أى إنسان ، وبين المخاوف غير الطبيعية وغير المبررة التى يعانى منها البعض كما فى معظم النماذج التى حدثتك عنها .

فالخوف إحساس إنسانى طبيعى لا يخلو منه إنسان سوىّ ، بل إنه فى بعض الأحيان يكون دليلا على اتزان الشخصية والنضج العقلى للإنسان ، لأن من لا يخاف الخطر الحقيقى ، لا يستنفر قواه العقلية والنفسية لمواجهته أو لتفاديه ، تمامًا كالطفل الصغير الذى لا يستشعر خطر لمس أسلاك الكهرباء أو الاقتراب من النار ، فى حين يستشعر الإنسان الناضج خطر ذلك ويتفاداه أو يحترس منه ، فإذا خاف من الكهرباء والنار فى هذه الحالة ، فإن خوفه يكون دافعًا إيجابيًا له على تفادى الخطر أو مواجهته بما يتطلبه من إجراءات مناسبة .

ومن يزعم أنه لا يخاف من شىء على الإطلاق فإنما ينكر على نفسه هذا الإحساس الصحى الذى يحتاج إليه الإنسان حين يتعرض لتهديد حقيقى . . ولقد أثبت العلماء أنه فى ظل معاناة الإنسان لقدر معقول من الخوف يكون إنجازه أفضل منه فى حالة عدم إحساسه بأى قدر من الخوف ، وحين يتعرض الإنسان لاحتمال اصطدام سيارة به فإن الخوف هو الذى يمده بطاقة إضافية تعينه على الهرب من طريقها ، أو اتخاذ القرار بتفاديها . ومن لا يشعر بالخوف من احتمال الفشل قد لا يجد فى نفسه دافعًا قويًا لتفادى هذا الاحتمال . . ببذل الجهد

اللازم لتحقيق النجاح . . والإنسان حين يخاف من موقف طارئ يبدأ جهازه العصبى فى تنبيه العضلات والغدد . . ويؤدى ذلك إلى تغيرات فورية فى جسمه وهيئته فتتسع حدقتا العين لكى تعطى رؤية أفضل ، وتزداد قوة ضربات القلب ليدفع كمية أكبر من الدم إلى العضلات والمخ استعداداً للتفكير والجرى . . وهذا هو سر شحوب الوجه عند الخوف الشديد ، كما يتسارع التنفس أيضًا ، لأن هناك احتياج أكبر للأوكسجين ويزداد العرق لكى يبرد من حرارة العضلات ، وتتوتر العضلات الصغيرة التى تشد الشعر ، وهذا هو سر الربط بين الخوف الشديد وبين ما نسميه نحن «وقوف الشعر» !

لكن الخوف حالة مؤقتة تنتهى بنهاية الدوافع التى أثارتها والخوف المؤقت خوف طبيعى لا غبار عليه ، ولا يعيب أى إنسان مهما كان قدره أو عمره . . أما إذا استمر الخوف إلى ما لا نهاية . . أو إذا كانت دوافعه غير منطقية أو مبرره ، فإن هذا ما يسميه علماء النفس باسم «الفوبيا» - أى الخوف المرضى - وهى نوع من الخوف يرتبط بشيء ما أو موقف لا يشكل فى حد ذاته سببًا للخوف لدى الشخص العادى . . بل ويعرف المريض بالخوف نفسه أن ذلك الشيء لا يسبب الخوف لكنه رغم ذلك يجد نفسه مضطراً لتجنبه تفاديًا للخوف الشديد الذى يسيطر عليه منه .

وهكذا فإن الفوبيَا أو المخاوف المرضية المبررة تتسم دائمًا بالاستمرارية والتواصل ، وبأن من يعانيها يتحاشى دائمًا ما يثير هذه

المخاوف لديه فضلا عن عدم معقولية الخوف بالنسبة للآخرين ، بل وبالنسبة للمريض بها نفسه !

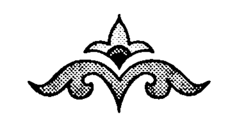
وأشهر هذه المخاوف المرضية التى يعانيها الإنسان بشكل مرضى أحيانًا الخوف من الأماكن العالية ، والخوف من الأماكن المغلقة ، والخوف من الأماكن المفتوحة ، ومن المرض ، والألم والظلام ، والزحام ، والجراثيم ، والحيوانات ، والماء والعواصف والرعد والبرق . . إلخ .

وفى بعض الأحيان تتخذ هذه المخاوف شكل الوسواس كما أن كل هذه المخاوف تتخذ أيضًا شكل «القهريات» ؛ لأنها تقهر إرادة الإنسان الذى يعانيها وتجبره على الخوف منها والابتعاد عنها بالرغم من إدراكه لعدم معقولية الخوف منها .

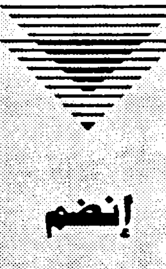
غير أنى أقول فى النهاية إن الإيمان بالله والثقة به وبحسن اختياره لنا ، وبأن أمر المؤمن - كما يقول لنا مضمون حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه - كله خير ، إن أصابته نعمة شكر فكان خيرًا له وإن أصابته مصيبة صبر ، فكان خيرًا له ، أقول لك إن هذا الإيمان يعيد إلى النفوس الكثير والكثير من طمأنينتها الهاربة . . ويبدد كثيراً من المخاوف والهواجس ، ويعين الإنسان على التحكم فى بعض مخاوفه وتحويلها إلى مخاوف إيجابية تدفعه لتفادى الأخطار .

كما أن هناك - إلى جانب ذلك كثيرين يتجنبون أشياء عديدة مختلفة بعضها ليس ضاراً فى حد ذاته ولا مخيفًا لكنهم رغم ذلك يتجنبونها ويتحاشونها بدوافع مجهولة لهم ، فلا يمنع ذلك من تواصلهم مع الحياة ولا يؤثر على حياتهم بالضرر ولا يعرضهم للآثار المرضية للخوف المبالغ فيه كالصداع وآلام الظهر والإحساس بالدوخة ومتاعب المعدة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلا مانع يا صديقى من أن تخاف من بعض الأشياء التى لا تخيف غيرك ما دام ذلك لا يؤثر على حياتك ولا يشل إرادتك عن التصرف إزاءها . . ولا يعرضك لأعراض الخوف المرضية كالرَّعشة وتسارع دقات القلب والتنفس وآلام المعدة ، ولا يمنعك من التواصل مع الحياة وتحقيق أهدافك فيها . .

فلا تخف من خوفك إذا كان فى حدود رد الفعل الطبيعى للأخطار الحقيقية أو المحتملة . . أو إذا كان لا يعوق قدراتك على العمل والتفكير والتواصل مع الحياة . . ولا تخجل منه أيضًا فعظماء كثيرون خافوا قبلك من أشياء عجيبة ومضحكة كما رويت لك . . ولم يمنعهم خوفهم من أن يبدعوا وينتجوا ويضيفوا الجديد والمفيد إلى الحياة !



# بين العظماء !




إلى مجموعة « العظماء » الذين « يراقبونني » وأنا أكتب لك هذا المقال ضيف جديد ! . . فبعد طول انتظار حمل إلىّ صديقى المقيم فى فينا ما طلبته منه منذ شهور . . وهو «رأس» الموسيقار النمسوى جوهان شتراوس الإبن مؤلف فالس «الدانوب الأزرق» الشهيروغيره من الروائع الموسيقية .

فمن هواياتى السرية التى أستمتع بها . . أن أقتنى «رؤوس» المفكرين والفلاسفة وكبار الأدباء الذين أثروا الحياة بإبداع عقولهم ، فكأنما أريد كلما نظرت إليها أن أستلهم الإبداع منها . . أو كأنما أتعجب صامتًا حين أتأملها كيف أخرجت هذه الرؤوس «البرونزية» . . «والرخامية» . . و«الحجرية» كل هذا الإبداع الذى مازلنا نستمتع به حتى الآن ومازال يضيء الحياة ويسهم فى تجميلها !

ومع أن المسألة ليست «بالحجم» كما أثبت ذلك تشريح مخ العالم العبقرى ألبرت اينشتاين الذى تبرع بمخه ، للأغراض العلمية بعد وفاته . . فإذا بالأطباء يجدون هذا المخ العبقرى أصغر من الحجم الطبيعى ، فإننى كثيراً ما تخيلت «رؤوس» هؤلاء العباقرة بحجم عبقرياتهم وإضافاتهم للإنسانية فأتخيل رأس سقراط مثلا فى حجم المنطاد الكبير ، ورأس أرسطو فى حجم عمارة الإيموبيليا . . ورأس بيتهوفن فى حجم جبل المقطم وهكذا !

وبسبب هذه الهواية السرية كثيراً ما أنفقت وقتًا طويلاً خلال رحلاتى الخارجية فى البحث عن هذه الرؤوس والتنقل وراءها من متجر عاديّات إلى متجر ، فإذا فشلت فى الحصول على بغيتى اعتمدت على أصدقائى المقيمين فى الخارج فى تلبية مطلبى الذى يعيدنى أحيانا إلى أجواء دسائس القصور فى التاريخ القديم حين أقول لأحد هؤلاء الأصدقاء : إئتنى برأس فلان !

فلا يتصورنى والحمد لله أميراً من أمراء المماليك يطلب رأس أحد خصومه ويتوقع منه أن يقدمه إليه على سنان سيفه ، وإنما يتفهم هوايتى المتعبة هذه بسماحة ويعدنى بالبحثَ عنها إلى أن يجدها ، ثم يحملها إلىّ فى أول زيارة .

وهكذا تجمعت لدىّ فى غرفة مكتبى بالبيت مجموعة ثمينة من رؤوس المفكرين والمبدعين . . وانضم إليهم منذ أيام جوهان شتراوس الابن فذكرنى من جديد بأنه لا شىء يحول بين الموهبة وبين انفجارها

وتعبيرها عن نفسها ، فلقد كان أكبر أبناء جوهان شتراوس الأب وهو موسيقى نمسوى شهير أيضًا ، له أكثر من ١٥٠ مقطوعة من مقطوعات الفالس ، وقد أراد لأبنائه ألا يعانوا عذاب الإبداع الموسيقى مثله وكره لهم أن يحترفوا الموسيقى ، فتعلمها ابنه الأكبر خفية وعينه أبوه كاتبًا بأحد المصارف ليبعده عن طريق الفن الشائك ففوجئ به ذات يوم يقود فرقة موسيقية صغيرة ، ويعزف الكمان ببراعة مذهلة . . فسلم له بما أراد كارهًا . . واحترف جوهان الابن الموسيقى ومعه شقيقان آخران ، وتولى قيادة فرقة أبيه بعد وفاته !

أما أن هؤلاء العظماء «يراقبوننى» وأنا أكتب لك هذا المقال فهذه «حقيقة» أحس بها فى أعماقى راجيًا ألا تظن بعقلى الظنون . . فهم - أو أكثرهم - يتجمعون فوق رف مكتبة تقع إلى يسار مكتبى ، وكثيراً ما استغرق فى الكتابة . . ثم أضيق بإجهادها الذهنى والنفسى لى وأتوق إلى وضع القلم والاستسلام لمتعة مشاهدة التليفزيون . . أو القراءة الخفيفة التى تروّح عن النفس ولا تجهد الذهن . . وأهمُّ بأن أفعل ذلك فأرفع رأسى عن الأوراق عرضًا . . وأرى عيون هؤلاء العظماء تنظر إلى فى لوم صامت وسخرية مكتومة . . فيخيّل إلىّ أنها تقول بغير كلام :

- أتريد أن تكون كاتبًا بغير أن تتجشم العناء . . وتقضى الساعات الطويلة منحنيًا على الأوراق . . باحثًا عن الأفكار . . كما فعلنا نحن لسنوات طوال طوال ؟!

فأشعر ببعض الخجل من نفسى . . ويشتد حرجى حين أحس بأن الموسيقار العبقرى موزار أو موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩٠) على الخصوص يكاد يتجاوز نظرة الإستنكار إلى ما هو أكثر منها ، وأتذكر أنه لم يعرف طعم الراحة طوال عمره القصير الذى لم يطل عن ٣٤ عامًا ، وأنه قد عانى عذاب الإبداع مبكرًا ، فكتب أول سيمفونية له وهو فى الثامنة من عمره وأول أوبرا له وهو فى الحادية عشرة وأنه قد خلف وراءه ٤١ سيمفونية وعشرات الأوبرات والكونشيرتات وسيطر بموسيقاه على روح القرن الثامن عشر فى أوروبا ، وعلى الرغم من غزارة إنتاجه فقد عاش حياة جافة متقشِّفة غارقًا فى الديون حتى اللحظة الأخيرة !

وليس موزار وحده هو الذى يطل علىّ من فوق رف المكتبة ويلاحقنى بنظراته اللائمة أو الساخرة كلما تراخيت فى عملى أو مالت نفسى لاتباع هواها فى الرَّاحة والدعة ! فهناك أيضًا لودفيج بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) وهو لا يطل علىّ من وضع الجلوس المريح ، بل من الوضع واقفًا كأنما يقول لى إنه لم يعرف الراحة حيًا أو ميتًا . . فلماذا أريدها لنفسى ؟ والحق أنه العبقرى الوحيد الذى يقف فوق رف المكتبة بين باقى العظماء الجالسين عليها . وهو يخالف بذلك القاعدة العجيبة التى وضعها الفيلسوف الألمانى المتشائم شوبنهاور ، حين قال : إن القادة العسكريين والزعماء ينبغى أن يُخلّدوا بتماثيل كاملة لأنهم يخدمون الحياة بأجسامهم كلها . . أما المفكرون والمبدعون فينبغى تخليدهم بتماثيل نصفية لأنهم يخدمون

الحياة برءوسهم فقط ! ومع اختلافى مع هذه القاعدة ، حيث أرى أن الجميع يخدمون الحياة برؤوسهم وليس بأجسامهم ، إلا أننى أحب التماثيل النصفية أكثر من التماثيل الكاملة وأتغاضى عن هذا الاستثناء من بيتهوفن وحده ، لأنه هو أيضًا استثناء من كل شيء ، فلقد تفجرّت عبقريته وهو صبى صغير وتوالت مؤلفاته حتى بلغ أوج شهرته وهو فى العشرين من عمره ، وبدلا من أن يستمتع بالنجاح والشهرة بدأت تظهر عليه أعراض الصمم فى أواخر العشرينيات من عمره ، وانكسر قلبه فى عدة تجارب عاطفية كانت نهايتها كلها شديدة الإيلام له ، وفى الأربعين من عمره أصيب بالصمم التام ، فانسحب من الحياة الاجتماعية وتوقف عن الذهاب للحفلات الموسيقية .

ومن عجب أن تكون أعماله الموسيقية التى أبدعها وهو أصم لا يسمع حتى دق الطبول المدوى ، من أعظم وأروع ثمار عبقريته !

ومات بيتهوفن عن ٥٧ عامًا ، و٩ سيمفونيات بينها السيمفونية الثالثة التى كان قد ألفها تمجيدًا لنابليون حين بزغ نجمه فى فرنسا ، وأسماها بونابرت ، ثم شطب اسمه من عليها وسماها «البطولة» حين نصب نابليون نفسه امبراطور للفرنسيين وتنكر للمبادئ الجمهورية ، فضلاً عن ٣٢ سوناتا وخمسة كونشيرتات ومجموعة كبيرة من المقطوعات الوترية .

فكيف يقبل منى مثل هذا « الرجل » أى عذر بالتعب أو الإجهاد أو الملل ؟

هناك كذلك صاحب هذا الوجه المحدد التقاطيع الذى يحيط بجبهته إكليل من الغار على النَّمط الرومانى القديم وهو شاعر الإيطالية الأعظم دانتى الليجيرى ، وقد اشتريته - عفواً لهذا التعبير - من إحدى الأسواق المتنقلة التى تقام فوق الأرصفة مرتين كل أسبوع بكل حى من أحياء باريس وتعرف باسم «المارشيه» . . وقد تجولت فى «المارشية» الذى عثرت فيه على هذه الرأس الغالية مع صديق لى كان يرغب فى شراء بعض أدوات المائدة . . وتوقفنا أمام مائدة عليها بعض هذه الأدوات فإذا بى أرى وجه دانتى الرُّخامى الجميل . . ينظر فى الفضاء فى تأمل فلم أتردد فى اقتناصه .

وجاء دانتى ليحتل مكانه بين عظماء المكتبة ويذكرّنى كل حين بروائعه الشعرية وأعظمها بغير جدال هى «الكوميديا الإلهية» وقد صاغها فى ثلاثة أجزاء وقدم فيها رحلة خيالية إلى العالم الآخر صحبنا معه فيها إلى «الجحيم» الذى رتبه منازل تجمع بين كل الخطاة والأشرار ، ثم إلى «المطهر» حيث يتطهر من لا تخلدهم خطاياهم فى الجحيم ، ثم إلى «الفردوس» حيث ينعم الأبرار والصالحون بالنعيم .

ومنذ قرأت هذه الكوميديا الإلهية وأنا مفتون بها وبه ومازالت بعض مقاطعها البليغة ترنّ فى أذنى :

المجد لا يُنال فى الفراش أو تحت الأغطية . . وقوة الروح تظفر فى كل معركة !

ذهب الدنيا كله لا يستطيع أن يريح نفسًا من عذاب ا لطمع !

ليس هناك أضلُّ ممن يأخذه الأسى أمام قضاء الله !

وغير ذلك كثير وكثير . . ومن أكثر ما أعجبنى فى هذه الملحمة الشعرية أن دانتى قد اختار أعمق منازل الجحيم لمن يخونون من أحسَنَ إليهم أو يتنكرون له ، وأيضًا لخونة الأصدقاء الذين وثقوا بهم ، ورمز هؤلاء عنده هم إبليس ، ويهوذا خائن السيد المسيح عليه السلام ، وبروتوس خائن صديقه يوليوس قيصر ، وهؤلاء عند دانتى نفاية البشر !

أما صاحب هاتين العينين الجريئتين والملامح المتسائلة على الدوام فهو صديقى القديم سقراط أبو الفلاسفة ، وقد جئت به من أثينا وتعجبت ومازلت أتعجب كلما نظرت إليه . . كيف وصفه المؤرخون بأنه كان قبيح المنظر . . دميم الخلقة . . كبير الأنف واسع الفم . . رث الثياب بارز العينين !

فالحق أننى لا أرى فى وجهه من هذه الملامح سوى بروز العينين وأرى ذلك متوافقًا مع الدور الذى هيأته له الأقدار وهو «التطلُّع» الدائم إلى الحقيقة ومحاولة الوصول إليها ، ولقد كانت وسيلته لذلك هى التماسها لدى كل من يقابله فى الأسواق وفى الطريق بطرح الأسئلة المتوالية عن « الما » . . ما الإنسان . . ما الخير . . ما الفضيلة . . إلخ . .

وكلما رأيت عينىْ سقراط المقتحمتين ابتسمت باطنيًا وتذكرت طريقته المنضلة فى كشف جهل الجاهلين ، فلقد كان يؤمن بأنه هو والآخرون جميعًا لا يعرفون شيئًا عن حقيقة ما يتشدقون به من ألفاظ ، لكنه يتميز عنهم بشىء جوهرى هو أنه «يعرف» أنه لا يعرف شيئًا ، فى حين لا يعرف الآخرون أنهم جهلاء مثله !

وكانت طريقته لكشف جهل الآخرين هى أن يستدرجهم بإطراء معارفهم وحكمتهم لإيضاح ما يتحدثون عنه من نقاط يراها غامضة على فهمه البسيط ، ثم ينهال عليهم بأسئلته المحرجة بلباقة ومهارة . . حتى يعترفوا جميعًا بجهلهم !

أما صاحب هذا الوجه الحالم الذى تكسوه مسحة خفيفة من الأسى الدائم فهو عبقرى الأدب الروسى أنطون تشيكوف . .

ولابد أن تكون مسحة الأسى هذه اعتمرارًا لطفولته التعيسة التى قال عنها وهو فى أوج مجده : فى طفولتى لم تكن لى طفولة !

وهذا صحيح بالفعل فقد كان يعمل فى حانوت أبيه من الصباح الباكر حتى السادسة مساء ويتعرَّض لعقابه البدنى القاسى كثيرًا . . وكان أبوه يلزمه ويلزم أخوته إلى جانب العمل بالحانوت والتفوق فى الدراسة بتعلم بعض الحرف ، وبعد أن أنهى تشيكوف دراسة الطب وعمل طبيبًا ونشر روائعه القصصية وقدَّمت المسارح مسرحياته الشهيرة ، قال ذات يوم لمدير مسرح معروف : كانت طفولتى خالية من العطف إلى حد أننى مازلت أنظر إلى العطف حتى الآن وكأنه شىء لم تكن لى به سابق خبرة !

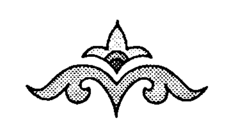
وقال له أيضًا : لم أغفر لأبى حتى الآن جلده لى كثيرًا وأنا طفل صغير !

ورغم إنكار تشيكوف للعطف الذى لم يجربه فلقد فاضت نفسه الخيِّرة عطفًا على النوع الإنسانى كله وفهما للطبيعة البشرية وصورت قصصه القصيرة أدق وأخفى أسرار النفس ، ثم مات مصدورًا وهو فى الرابعة والأربعين فقط من عمره عام ١٩٠٤ وبقيت قصصه القصيرة الرائعة . . تقدم لكل من يقرأها شيئين أساسيين : المتعة . . والحزن !

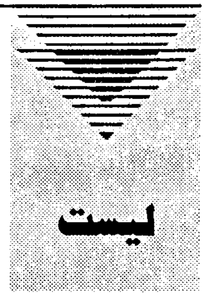
وأما صاحب هذا الوجه المريح الذى تبدو ملامحه مرتبة كأنما تشى بعقله المرتب أيضًا ، فهو المعلم الأول . . أرسطو ، وقد سُمىّ بذلك لأنه أول من علّم المنطق ولم يكن قبله علمًا ، وقد ولد بمقدونيا سنة ٣٨٤ قبل الميلاد وتتلمذ على يد أفلاطون الذى «يراقبنى» هو الآخر الآن من فوق قطعة أخرى من أثاث الغرفة ، وعمل أرسطو مؤدبًا للإسكندر الأكبر لمدة ثلاث سنوات ، وكاد يلحق بمصير سقراط حين اتهمه الأثينيون بالإلحاد ففرّ من أثينا قائلا : لن أسمح لأثينا بأن ترتكب خطيئة أخرى ضد الفلسفة ، ومات فى منفاه بعد شهور قليلة عن ٦٢ عامًا ، بعد أن كتب ١٧٠ كتابًا لم يحفظ لنا التاريخ منها سوى ٤٧ كتابًا ، وبعد أن أسس علم المنطق وكتب فى الفلك وعلم الحياة والأجنّة والجغرافيا والجيولوجيا والفيزياء والتشريح والشعر والسياسة والأخلاق . . وكان أثره على الحضارة الغربية والشرقية عظيمًا ، وبالرغم من أنه قد أصاب كثيرًا ، فلقد أخطأ كثيرًا أيضًا . . ومن

أطرف أخطائه أنه كان يعتقد أن أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل وكتب ذلك فى مؤلفاته ، وبعد قرون طويلة قال الفيلسوف البريطانى برتراند رسل إن أرسطو كان يستطيع أن يتجنب هذا الخطأ الفاضح لو كان قد طلب من « مدام أرسطو » أن تفتح فمها ثم قام بعدّ أسنانها !

يا إلهى . . انتهت المساحة ولم أحدثك بعد عن باقى العظماء الذين يحاصروننى من كل جانب فى مكتبى بالبيت . كما لم أحدثك كذلك عن أمنيتى المكتومة لو كانت هناك رؤوس أخرى متاحة لعظماء آخرين من الشرق العربى ، لكى أضم إلى مجموعتى رؤوس أشخاص من نوع عمر بن عبد العزيز . . والإمام أبى حنيفة النعمان . . والإمام ابن حزم الأندلسى . . والإمام أبى حامد الغزالى . . والإمام محمد عبده . . والبيرونى العظيم . . وابن سينا . . والإمام الليث بن سعد . . والمتنبى ملك الشعراء العرب . . وغيرهم . . فوا أسفاه على افتقادى لمثل هذه الرؤوس العبقرية الملهمة إلى جوارى . . واأسفاه على ما أضعته من وقتك بمثل هذا الحديث !



# كيف تأكل البطاطس .. وتصبح أديبًا عظيمًا ؟!




البطاطس فى حد ذاتها هى التى يمكن أن تصنع من إنسان أديبًا عظيمًا أو عالمًا شهيرًا .. أو رجل أعمال ناجحًا ، لكنه الرمز الذى ترمز إليه من القدرة على الكفاح وقوة الإرادة وتحمل جفاف الحياة خلال صعوبات البداية ! فكثيرون قد أكلوا البطاطس ومازالوا يأكلونها كل يوم بغير أن يصبحوا أدباء كبارًا كهذا الروائى الأمريكى أرسكين كالدويل لأنها لا ترتبط لديهم بهدف يسعون إليه .. ويتحملون عناء الحياة من أجله .. أما هو فلقد عاش سنوات يزرع البطاطس فى الأرض المحيطة بالبيت الحجرى الذى استأجره فى مقاطعة أمريكية قليلة السكان ، ويأكلها وحدها بلا إدام .. ويكتب طوال الليل فى غرفة باردة تتجمد فيها أصابعه وهو يدق بها على الآلة الكاتبة .. ويرسل القصة وراء القصة

إلى المجلات الأدبية .. فتعيدها إليه ملصقًا عليها بطاقة رفض مطبوعة حتى تجمعت لديه من هذه البطاقات مجموعة كبيرة احتفظ بها فى ألبوم ضخم كألبوم الطوابع ! ومع هذا فلم ييأس ولم يتوقف عن الكتابة .. بل ولم يندم على قراره المصيرى الذى اتخذه وهو فى الثانية والعشرين من عمره بالاستقالة من وظيفته كمحرر صحفى بجريدة محلية يتقاضى أجرًا مضمونًا ليتفرغ لكتابة القصة ، وليس فى جيبه سوى بضع دولارات يشترى بها الورق وبذور البطاطس وطوابع البريد لإرسال القصص للمجلات ، ، فيطول انتظاره سنوات وسنوات .. وتصاب أصابعه بقرح البرد ويفقد عشرين كيلو جرامًا من وزنه فلا يثنيه كل ذلك عن مواصلة المشوار ..

لكن البدايات قد تشير فى بعض الأحيان إلى النهايات .. والمؤكد أن بدايات هذا الروائى الأمريكى المعاصر كانت توحى بقوة الإرادة والقدرة على الكفاح والصبر على تحقيق الأهداف ، فخلال دراسته بالمرحلة الثانوية ، قرر الفتى أرسكين وهو يعيش مع أبيه القس الفقير أن يحصل على بعض الدخل الإضافى ليعينه على مطالبه ولم يجد هذا العمل سوى فى وردية الليل بمعصره للزيوت ، فعمل بها سرًا بغير علم والديه وراح يدخل فراشه مساء كل يوم وينتظر حتى يستغرق أبواه فى النوم ثم يتسلل إلى المعصرة البعيدة ليقضى الليل كله فى العمل بها مقابل دولار واحد ، ويرجع فى الصباح الباكر ليدخل

فراشه فلا تمضى ساعة حتى توقظه أمه للذهاب للمدرسة ، وفى هذا العمل الشاق استمر بضعة أسابيع حتى انكشفت أمره حين غلبه النوم على مائدة الإفطار ذات يوم فمنعه أبوه من العمل رحمة بصحته .. وانتهت تجربة العمل الأولى فى حياته لكنها تركت فى حياته أثرًا شديد الأهمية ، فلقد اشترى بمدخراته من هذا العمل آلة كاتبة مستعملة قدّر له أن يرتبط بها مصيره بعد ذلك لسنوات طويلة وبدأ يستخدمها فى كتابة القصص الإخبارية التى يبعث بها للصحف المحلية ثم أنهى دراسته الثانوية والتحق بالجامعة فى مدينة أخرى فحمل معه هذه الآلة المستعملة وواصل هوايته فى كتابة الصور الأدبية ونشرها بمجلة الجامعة ، ثم هجر دراسته الجامعية قبل التخرج وعمل بصحيفة محلية فى ولاية أطلانطا ، وحقق فى عمله الجديد نجاحًا طيبًا ارتفع معه أجره الأسبوعى واستقرت أحواله المادية .. لكن شيئًا ما فى داخله كان يتطلع إلى ما هو أكثر من العمل الصحفى العادى .. فراح يكتب القصص القصيرة ويرسل بها إلى المجلات الأدبية ، وقبلت إحدى الصحف أن يقوم بكتابة تعليقات قصيرة على الكتب الجديدة بلا أجر مقابل احتفاظه بما ترسله من هذه الكتب .

وبعد عام واحد من عمله بهذه الصحيفة وجد لديه حوالى ألفى كتاب جديد ، وأربعين أو خمسين قصة قصيرة أرسلها للمجلات الأدبية ورفضتها ومائتى دولار وفرها من أجره فأقدم على أخطر

خطوة فى حياته وهى أن يستقيل من عمله الصحفى ويتفرغ لتحقيق هدف محدد هو أن يصبح كاتبًا محترفًا ، واعدًا نفسه كما قال فى مذكراته الأدبية بعنوان «كيف أصبحت كاتبًا روائيًا» ألا يعمل بأية وظيفة أخرى إلا مضطرًا ولفترة مؤقتة حتى يحمى نفسه من الجوع والضياع إلى أن يرجع للتفرغ للأدب من جديد ، وحدد لنفسه فترة خمس سنوات لتحقيق أمله فى أن يصبح كاتبًا معروفًا تدفع له الصحف أجرًا مقابل ما ينشره فيها من قصص ..

لكن كيف يعيش خلال هذه السنوات الخمس وهو شاب فقير ولا تستطيع أسرته إعالته ؟

لا يعرف على وجه التحديد ، ويعترف بذلك صراحةً فى مذكراته.

لكن الشاب الطموح قرر أن ينتقل إلى مكان بعيد يتفرغ فيه للكتابة واختار على الخريطة مدينة صغيرة اسمها فيرنون بولاية مين الأمريكية واستأجر فيها بيتًا حجريًا لمدة عام دفع إيجاره مائة دولار مقدمًا ثم شحن كتبه فى صناديق كبيرة عن طريق النهر وركب القطار إليها وكان البيت الذى استأجره بيتًا قديمًا جميلاً كبيت صيفى ، أما خلال الشتاء الطويل فقد كانت الإقامة به محنة قاسية ، وكان أول درس تعلمه الساكن الجديد من أحد جيرانه هو أن يزرع على الفور بذور البطاطس فى الأرض المحيطة ليجد ما يطعمه خلال الصيف ، وأن يقطع عددًا

كبيراً من أشجار الغابة القريبة ليجد ما يكفيه من أخشاب للتدفئة طوال محنة الشتاء .

وبدأ الشاب العمل بحماس فى الجبهات الثلاث ، يزرع البطاطس ويقطع الأخشاب ويجلس فى المساء أمام آلته الكاتبة حتى الفجر ، لكنه فقد مخزونة من الخشب بأسرع مما توقع ، وصور حاله حينذاك قائلاً : «مع مجيء يناير كان معظم الخشب المخزون قد نفد وكان الثلج يرتفع فى الخارج بضعة أقدام فأبقيت مدفأة المطبخ وحدها مشتعلة ، ورحت أكتب فى الليل فى غرفة باردة بالطابق العلوى بلا مدفأة مرتديًا سويتر من الجلد فوق البيجامة وأنا ألفّ ساقى ببطانية وأنفخ فى أصابعى المتجمدة من حين لآخر . . وأكتب من ١٠ إلى ١٢ ساعة كل ليلة » !

وواصل الشاب حياته على هذا النحو وكلما عجز عن احتمال البرد سافر إلى الجنوب طلبًا للدفء وأقام فى كوخ صغير زهيد الإيجار لبعض الوقت إلى أن يتحسَّن الجو ويرجع إلى بيته الحجرى ومع مجيء الصيف التالى كان قد تعلم الدرس ، فبدأ يقطع كمية أكبر من الأخشاب وراح يعزق الأرض لإخراج ثمار البطاطس ، وتوقف ليراجع نفسه فإذا به لم يكسب طوال هذا العام دولاراً واحداً من الأدب ، وكان كل ما كسبه من بيع الكتب التى يكتب التعليقات المجانية عليها فكان كلما نفدت نقوده ملأ حقيبة كبيرة بعدد منها ثم

ذهب إلى المدينة ليبيعها ويشترى بثمنها الورق وطوابع البريد والخبز ويرجع لحياته المنعزلة .

وأخيراً وبعد عامين من التفرُّغ الكامل لكتابة القصة تلقى خطابًا من مجلة أدبية متخصصة تصدر من نيويورك اسمها «كارفان» تبلغه فيها بقبول أول قصة له للنشر مقابل ٢٥ دولارًا !

وسعد الشاب الأديب سعادة طاغية بهذا النبأ وبعد أن تخفف قليلاً من انفعاله به ملأ حقيبة جلدية بما كتبه من قصص ومقالات وركب الأتوبيس إلى المدينة الصاخبة نيويورك وليس فى جيبه سوى ١٢ دولارًا .

وزار المجلة التى قبلت قصته ، وعدداً آخر من المجلات ودور النشر فقبلت إحداها نشر قصة أخرى طويلة له ، ثم رجع إلى «فيرنون» بعد نفاد نقوده ليواصل أكل البطاطس وكتابة القصص وإرسالها للمجلات متعلقًا بأمل جديد ! وقبل أن يفترسه الجوع والإجهاد والعمل الشاق كل ليلة أنقذته مجلة أدبية أخرى بقبول نشر قصتين وإرسال ٣٥٠ دولار ثمنًا لهما إليه ، ثم قبلت مجلة «كارفان» نشر أول مجموعة قصصية له فبدأت معالم الطريق تتَّضح أمامه بعض الشىء وبدأ هو مرحلة جديدة من حياته راح يتنقل خلالها من مدينة إلى مدينة بحثًا عن تجربة إنسانية يسجلها فى قصة جديدة ، فيقيم فى

الفنادق الصغيرة الرخيصة ويكتب طوال الوقت ويعيش على الخبز والجبن ، فإذا نفدت نقوده تمامًا أخرج تذكرة العودة بالأتوبيس ورجع إلى البيت الحجرى ينتظر بيع إحدى قصصه ليرجع إلى التجوال من جديد .

وصدرت مجموعته القصصية الأولى بعنوان «الأرض الأمريكية» فلم يحسن النقاد استقبالها . . وانهمك فى البيت الحجرى فى كتابة رواية طويلة لأول مرة منقطعًا لها تمامًا لمدة شهور ، وراح يقسم يومه إلى ثلاث فترات محددة ٨ ساعات للنوم ، ٨ ساعات للعمل اليدوى الشاق فى جنى البطاطس وزراعة البذور الجديدة وقطع الأخشاب و٨ ساعات للكتابة يوميًا .

وصدرت خلال ذلك روايته الأولى «طريق التبغ» فلم يرحب بها معظم النقاد لكنه لم يحرم إلى جانب ذلك من بعض التعليقات المتعاطفة معها وتعرف بوكيل أدبى تحمس لتسويق مؤلفاته فكتب رواية أخرى ، وأصبح يرسل إليه قصصه القصيرة ليتعاقد هو مع المجلات على نشرها مقابل نسبة مئوية له ، وبعد أربع سنوات من الانقطاع للكتابة الأدبية كان دخله السنوى من الأدب قد بلغ ٧٠٠ دولار فدفع إيجار البيت الحجرى لمدة عام آخر وبقى معه ما يكفى ليعول به نفسه وأبويه الذين لحقا به للإقامة معه فى البيت وكتب عن ذلك يقول :

«وتناولنا اللحم المشوى لأول مرة منذ سنة وتركنا نسبة كبيرة من البطاطس تتعفن فى باطن الأرض ذلك الخريف وأملت أن يكون ما أكلته منها ومن اللفت الذى كنت أزرعه معها هو آخر ما آكله منهما فى حياتى !

وتحقق «الأمل» بالفعل بعد ذلك . . وودع أرسكين كالدويل سنوات الجوع والبرد والحرمان بعد ست سنوات حافلة بالعناء وتوالى صدور كتبه ورواياته ومجموعاته القصصية ، وقدمت له السينما الأمريكية عدداً من الأفلام الناجحة عن رواياته الشهيرة ، كرواية «أرض الله الصغيرة» وتحولت رواية «طريق التبغ» إلى مسرحية ناجحة فى مسارح برودواى بنيويورك ، وصدرت طبعات من كتبه فى بريطانيا وترجمات لها فى فرنسا . . وصدرت له أربع مجموعات قصصية وعدة كتب من أدب الرحلات لاقت رواجًا كبيراً فى أمريكا وسافر إلى الاتحاد السوفيتى خلال الحرب العالمية الثانية فتهافتت الصحف الأمريكية والإنجليزية على نشر مقالاته عن «روسيا فى الحرب» مقابل أجور سخية ، ورجع إلى أمريكا فلاحقته شركة «وارنر» بإلحاح ليكتب لها «مسودة» قصة فيلم عن روسيا فى الحرب ، مقابل الإقامة الكاملة فى جناح فاخر بفندق كبير ودفع أجر سكرتيرته أو مساعدته و ١٢٠٠ دولار فى الأسبوع طوال فترة العمل ، واشترى

الأديب الشهير بيتًا صيفيًا فاخرًا فى ولاية أريزونا ذات الجو الحار ، كأنما يريد الإمعان فى البعد عن ذكريات البرد القارص فى بيت فيرنون الحجرى .

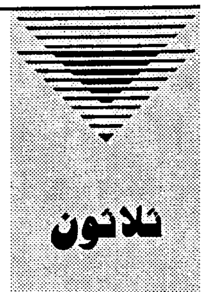
وأعيد طبع رواية «أرض الله الصغيرة» فى طبعة شعبية فوزعت مليونى نسخة ، وهى التى لم توزع فى طبعتها الأولى سوى ثلاثة آلاف !

وأصبحت المجلات والصحف تتنافس على طلب القصص القصيرة من الأديب الكبير لنشرها فيتراوح أجره على نشر القصة الواحدة منها بين ٥٠٠ و١٥٠٠ دولار ، ومن عجب أن بعض ما نشر منها كان من بين القصص التى كتبها فى بيت فيرنون الحجرى البارد وهو يعيش على حساء البطاطس وأرسلها للمجلات الأدبية فأرجعتها إليه بالبريد تحمل بطاقة تقول : مرفوض لضعف المستوى !

وصدق حقًا من قال : إن أعظم الأعمال لا تتحقق بالرغبة وحدها وإنما بالمثابرة والدأب والاستمرار فى بذل الجهد المخلص لتحقيقها ، ولو تحمل الإنسان فى سبيل ذلك . . البرد والحرمان ومرارة الرفض لفترة طويلة !



# أحلى الأسماء !




عامًا أو أكثر ولم أنس بعد مطلع هذه المقطوعة الرقيقة من الشعر العاطفى الرقيق ! قرأتها وأنا فى شرخ الشباب فى ديوان من الشعر اسمه «ليالى الهرم» للشاعر الغنائى الراحل صالح جودت ، لعلى كنت قد اشتريته وقتها بعشرة قروش ، فاستمتعت بقراءة كل أشعاره لكنى أحببت هذه القصيدة بالذات وحفظت مطلعها وبعض أبياتها ، واستقرت فى ذاكرتى ، أما ديوان الشعر نفسه فلقد اختفى فيما اختفى من كتبى الثمينة القديمة ، وطوته يد النسيان أو يد السرقة والاختلاس إن شئت الحقيقة !

فأنا لا أفرط فى كتبى بسهولة . . ولا أدعها للإهمال لكى أزعم أنى قد افتقدت هذا الكتاب وغيره خلال انتقالى من مسكن إلى مسكن

كما يقول بعض الكتاب فى مذكراتهم . ومازال لدىّ حتى الآن كتب اشتريتها وعمرى ١٥ عامًا ومازلت أحتفظ بها كما مازلت أحتفظ أيضًا بأول مكتبة خشبية صغيرة كلّف أبى يرحمه الله نجارًا متواضعًا بأن يصنعها لى وعمرى ١٦ عامًا لأحتفظ فيها بكتبى القيمة .

وقد انتقلت من بلدتى الصغيرة دسوق إلى القاهرة لالتحق بالجامعة ، وانتقلت معى هذه المكتبة الصغيرة التى لا تعدو أن تكون دولابًا صغيرًا بأبواب من الزجاج وتنقلت بعد ذلك من مسكن إلى مسكن فى القاهرة وهذه المكتبة الأثرية تصاحبنى إلى حيث انتقل ولا أفرط فيها . . إذن فكيف فقدتُ هذا الكتاب وعشرات بل ومئات من الكتب المماثلة التى لا أستطيع تعويضها الآن ؟

الحكاية أننى قد إبتليت بصداقة بعض «لصوص الكتب» منذ سن الصبا كما ابتليت فيما بعد فى سن الشباب «بمعرفة» ولا أقول بصداقة البعض الآخر ، وهؤلاء وهؤلاء كانوا يعرفون عنى جيدًا كراهيتى للتفريط فى أى كتاب أو إعارته لمن يريده . . فكانوا يختلسون منى هذه الكتب سرًا ولا يعيدونها إلىَّ أبدًا !

والآن وأنا أكتب هذا المقال وأسترجع فى مخيلتى أسماء وعناوين وأغلفة بعض الكتب الثمينة التى فقدتها بهذه الطريقة ، ألتمس بعض العذر للمهاجرين الأوائل إلى أمريكا الذين كانوا يفرضون عقوبة الشنق على فرع أقرب شجرة على لصوص الجياد ، باعتبار أن الجياد

كانت أثمن ما فى حياة المهاجر الجديد لأنها وسيلة مواصلاته الأساسية . . «وسيارته» التى يمتطيها لارتياد مجاهل الغرب الأمريكى ، ولأن سرقتها تؤخر التعمير والتقدم وتهدد أمان المواطنين!

وأذكر من «لصوص الجياد» الثقافية هؤلاء صديقًا لى كان مهندسًا وكان يقيم فى تلك المرحلة من شبابنا فى الصحراء ويأتى إلى القاهرة مرة كل شهر فيقيم معى فى مسكنى الذى أعيش به وحيداً ، ونمضى أيام إجازته فى أحاديث متصلة وسهر متواصل ومشاهدة مسرحيات المسرح القومى والأفلام «الحديثة» إلى أن يحين موعد عودته فينهض فى الصباح الباكر وأنا مازلت مستغرقًا فى نومى ويسافر إلى عمله .

وظللنا على هذا الحال بضعة أعوام نستمتع بأوقاتنا وبالصداقة الصافية خلال زياراته الدورية للقاهرة ، وقد استرحت إلى أنه قد احترم منطقى بشأن رفض إعارة كتبى للآخرين وكفّ عن مطالبتى بذلك ، وكان منطقى فى ذلك ومازال هو أننى لا أرى مبررًا لأن يستعير الإنسان كتابًا من أحد وهو قادر ماديًا على شرائه من أقرب مكتبة ، وأننا ننفق الكثير على طعامنا وشرابنا ومقهانا ودور السينما والمسرح التى نرتادها ، فلماذا نبخل إذن ببضعة قروش على شراء كتاب أعجبنا ونرغب فى قراءته .

وقد سلّم لى صديقى المهندس بهذا المنطق الذى طالما جادلت به أصدقائى هواة استعارة الكتب ، ووافقنى على رأيى بأن هذه الإعارة

لا جدوى لها إلا فقدان الكتب أو إهمالها لدى من يستعيرها ، لأن من يرغب حقًا فى أن يتثقف لابد أن يتحمل تكاليف الثقافة مادام قادرًا عليها ، ولا يحق له أن يستعير كتب أحد غيره إلا إذا كان غير قادر ماديًا على شرائها ، أو إذا كان هذا الكتاب «نادرًا» لا يتوفر فى المكتبات . وقد سعدت كثيراً باقتناعه بمنطقى وكففنا عن الجدال والملاحاة حول هذا الشأن . لكن كتبى رغم ذلك راحت تتناقص ويختفى بعضها بغير سبب مفهوم واتجهت بظنونى إلى بعض من يزورننى من الأصدقاء والمعارف وخصصتُ بها أحدهم وكان من أدعياء الاشتراكية وقتها بعد أن جادلنى فى «بورجوازيتى» الثقافية وإصرارى على تمسكى بكتبى فى حين أن فلانا «اسم أجنبى مزيف بكل تأكيد وينتهى بـ أوف» والذى زعم أنه لكاتب اشتراكى روسى كان بعد أن ينتهى من قراءة أى كتاب يركب سيارة الأتوبيس العامة ويتعمد أن يترك الكتاب وراءه على المقعد عند نزوله لكى يعثر عليه مواطن آخر فيقرأه ويتثقف ؛ لأن «الثقافة للجميع» وليست حكراً على أحد !

ولم أقتنع بالطبع بهذا المنطق الفاسد . . وجادلته فيه طويلاً وقلت له أننا فى العادة نختار من «الشعارات» ما يخدم وجهة نظرنا وقد نؤلف لها الأقوال المساندة من وحى اللحظة ، كما ألفَ هو لى قصة هذا الكاتب الاشتراكى الذى لا أشك فى أنه لم يكن له وجود ، وأننى حتى لو كنت مسئولاً عن تثقيف «الجميع» فإنى أدعو من يشاء إلى أن

يقرأ ما يريد ولكن فى بيتى لأضمن عدم ضياع الكتب ، ولم يقتنع هو أيضًا بذلك وبعد انصرافه اكتشفت اختفاء الكتاب الذى أثار هذا النقاش كله حين رفضت إعارته له ، وتأكدت من أنه قد طبق عليه نظريته الفاسدة فى «شيوع الثقافة» !

وطلبت من صديقى الذى اصطحبه لزيارتى ألا يرجع به مرة أخرى! أما صديقى المهندس فقد راح كلما زارنى يجدّد دعوته لى لزيارته فى مقر عمله بالصحراء حيث يعيش فى بيت حكومى واسع ويقوم على خدمته بستانى وطباخ حكوميّان ويعدنى بقضاء بضعة أيام جميلة فى هدوء الصحراء وشاعريتها ، وحزمت أمرى أخيرًا وقررت زيارته مع صديق آخر لنا من أصدقاء الطفولة أيضًا ، وركبنا إليه فى قلب الصحراء واستقبلنا صديقنا المهندس بمظاهرة ترحيب على باب البيت وقادنا على الفور إلى مائدة الغداء الحافلة وانشغلنا بالطعام وتبادل الذكريات الضاحكة بعض الوقت ثم انتقلنا إلى غرفة المعيشة لنشرب القهوة فما أن دخلتها وتلفتُّ حولى أتأمل مكتبته الصغيرة المعلقة على الحائط حتى استدرت إليه صارخًا فيه : كتبى . . يا حرامى !

فلقد كان كل ما فى مكتبته من كتبى الضائعة والمختفية والمفقودة منى بطريقة غامضة طوال ٣ سنوات ! ولم يكن فى مكتبته كتاب واحد من مقتنياته الخاصة أو من مشترياته بحرّ ماله !

أليس هذا ما كان الاشتراكيون يسمونه «بنزح الثروات» الذى قام به الاستعمار الغربى حين نَزَح ثروات المستعمرات الأفريقية إلى بلاده؟ ألا يستحق ذلك الثورة والانفعال ؟لقد هممت بالانفعال فعلا ففوجئت بالصديقين ينفجران فى الضحك والصخب والصديق المذنب يقول لى ببساطة : ماذا أفعل وأنت لا ترضى بإعارتى الكتب وأنا لم أعتد شراءها ؟ وفوجئت بالصديق الآخر يتشفع له فى العفو بتقادم الجريمة وسقوط العقوبة ! ولم أجد مفراً من مشاركتهما السخرية وأصبحت «السرقة الكبرى» كما أطلقت عليها هى محور ضحكاتنا وتعليقاتنا نحن الثلاثة طوال اليومين اللذين أمضيتهما فى ضيافته ، وعند الرحيل جمعت من كتبى السليبة ما اتسعت له حقيبتى منها ، وتركت له الباقى وأنا أتوعده بأنه سينسى كل ما قرأة فى هذه الكتب المسروقة ولن يستفيد به شيئًا من الثقافة الحقيقية لأنها ثقافة من مصدر «حرام» !

وحرصت بعد ذلك حين يزورنى ألا أدعه يسافر عائداً إلى عمله فى الصباح الباكر وأنا نائم كما كان يفعل طوال السنوات الماضية رغم إعلانه «توبته» لى !

وسعدنا رغم ذلك بصداقتنا المخلصة وذكرياتنا المشتركة التى بدأت ونحن فى المدرسة الابتدائية .

ولست أعرف هل كان ديوان «ليالى الهرم» لصالح جودت من بين «سرقاته» الثقافية منى ، أم كان من سرقات شخص آخر من لصوص

الجياد هؤلاء لكنى فقدت هذا الكتاب فى أوائل الستينات ولم أعثر عليه أبدًا بعد ذلك فى المكتبات رغم بحثى عنه أكثر من مرة .

وهيهات حتى لو عثرت على طبعة حديثة له أن تعوضنى عن طبعته الأولى فالكتب القديمة فى طبعاتها الأولى كالنبيذ المعتق تزداد قيمتها كلما مضت عليها السنوات ومنذ أسابيع تحسَّرت بلا مناسبة على هذا الديوان الضائع خلال حديثى مع صديقة مثقفة وكاتبة للقصة القصيرة ورويت لها أننى مازلت أتذكر مطلع إحدى قصائده الجميلة الذى يقول فيه الشاعر :

ما اسمك بين الأسامى

يا فتنتى يا غرامى

إن قلتِ أو لم تقولى

فاسمك أحلى الأسامى !

ففوجئت بها تقول لى بأن لديها نسخة من هذا الديوان ضمن الأعمال الكاملة لصالح جودت ، وتعدنى بإهدائها لى !

ورجعت بالفعل بعد أيام حاملة إلى مجموعة أشعار صالح جودت فى طبعة لبنانية صدرت عام ١٩٨٢ ، وشكرتها بحرارة على هديتها الثمينة ، وتصفحت الديوان بلهفة باحثًا عن القصيدة التى قرأتها وأحببتها منذ أكثر من ثلاثين عامًا ووجدتها فى ديوان ليالى الهرم بعنوان : ما اسمك ! واسترجعت كلماتها وأنغامها الشاعرية الرقيقة

أو قل إننى قد استرجعت فيها صدى أنغام شرخ الشباب وذكرياته الحلوة وأحلامه الوردية .

واستعدتُ محاولات الشاعر لتخمين اسم الفتاة الجميلة التى خلَبت لُبّه ولم يعرف بعد اسمها فيقول لها :

إنى أسمّيك ليلى

لتبعثى فى خيالى

ذكرى شهيد غرام

كم عذبته الليالى

جنُونه من جنونى

ضلاله من ضلالى

قولى هل اسمك ليلى

أم ذاك وحى غرامى

إن قلت أو لم تقولى

فاسمك أحلى الأسامى !

ولا يستقر الشاعر بعد ذلك طويلاً على اسم ليلى وإنما يواصل تخميناته واختياراته هو لما يناسب جمالها من أسماء فيقول :

هواىَ أدعوك نجوى

لكى أناجيك دهرى

أم هـل أســـــمـــيك سلوى

إذ أنت كــأسى وخـــمـــرى

أم هل أســـمـــيك رضــوى

إذا رضـــيت بشــــعـــرى

أم هل أســـمـــيك فـــدوى

وأفـــتـــديك بعـــمـــرى

أم هـــل أنـــاديـــك نـــورا

لـكـى تُنـيــــــرى ظـلامـى

إن قـلـت أو لـم تـقـــــولـى

فـــاســمك أحلى الأســامى !

لكن ماذا «تهم الأسماء والكلمات» فى النهاية كما يقول لنا شاعر الإنجليزية العظيم وليم شكسبير فى مسرحية هاملت ؟ إن الأهم منها دائمًا هو جمال الروح والقلب الذهبى الذى تحمله صاحبة الاسم ، وليس الاسم نفسه وهكذا يقول صالح جودت لنفسه أيضًا فيستدرك فى ختام قصيدته قائلاً :

إن الأســـامى جـــمـــيـــعًا

جـــمـــالهـــا لا يـفـــيك

فــلـيـس فـى الـكـون حُســن

إلا تجـــــمع فــــيـك

فـــمـــا اهتـــمـــامى باسم
مـن اخـــتـــيـــار أبيك
إنـى أســـمـــيك روحـى
لـو أنـهـــا تُرضـــيك
تـخـــيَّرى فى الأســـامـى
وبـــين جـــنـــبـــىْ نـــامـــى
إن قـلـت أو لـم تـقـــولـى
فـــاســمك أحلى الأســامى !

ألا تعذرنى إذن فى حبى لهذه القصيدة الجميلة من الشعر الرقيق رغم مرور كل هذه السنوات ؟

وألا تشاركنى سخطى على «لصوص الجياد» الذين حرمونى منها ومن معارف أخرى قرأتها فى شبابى وحاولت استرجاعها بعد ذلك فاكتشفت سرقة مصادرها الثمينة ؟



# أرجوك .. أتوسل إليك : اكتب مذكراتك !




أن يجئ أى إنسان إلى الدنيا . . ويغادرها دون أن يترك وراءه كتابًا صغيرًا يحكى فيه بأمانة تجربته فى الحياة ، ليستفيد منه من يجىء بعده ويستعين به على تعلّم فن الحياة الصعب !

أنا شخصيًا استفدت من قراءة قصص حياة بعض المفكرين والأعلام فى كل المجالات ، أكثر مما استفدت أحيانًا من قراءة بعض أعمالهم ، ومن عادتى إذا رأيت فى أى مكتبة كتابًا يروى فيه مؤلفه قصة حياته أن أشتريه على الفور بغض النظر عن مكانة مؤلف الكتاب أو تخصصه أو رأيى فيه . فحياة أى إنسان حتى ولو كان شخصًا عاديًا لا علاقة له بالأدب والفكر والدين والسياسة ، تصلح لأن تكون كتابًا مفيدًا إذا التزم فقط بأن يحكى فيه بأمانة قصة نشأته بين أبويه ،

والمواقف والمحن الشخصية التى تعرّض لها . . وفيمَ أخطأ . . وفيمَ أصاب خلال صراعه مع الحياة . . إلخ .

وفى مكتبتى إلى جوار مذكرات الأعلام والمشاهير فى المجالات المختلفة ، مذكرات أخرى لأشخاص عاديين رأوا أن لديهم ما يقولونه للآخرين عن تجربتهم مع الحياة فسجلوها فى مذكرات تلقائية بسيطة ومفيدة . وليس غريبًا أن تجد عندى عددًا لا بأس به من الكتب التى تحمل عناوين من نوع : مذكرات مأمور شرطة ، أو مذكرات ضابط سجون ، أو مذكرات محام غير مشهور ، أو مذكرات مدرِّسة بمدارس البنات ! أو مذكرات شيخ أزهرى قديم ، بل وأيضًا مذكرات كومبارس بالسينما ! ولو صدر كتاب بعنوان «مذكرات ماسح أحذية» لما ترددت فى اقتنائه على الفور ولقرأته بشغف باحثًا بين سطوره عن خبرة حياته أو تجربة شخصية تعيننى على فهم الحياة والتعامل معها .

ويبدو أننى قد اكتسبت هذه العادة تأثرًا بالعقاد العظيم الذى كان يقرأ فى كل شىء وأى شىء من الأدب والدين والتاريخ والفكر السياسى إلى كتب التراجم والسير الذاتية وعلم الحشرات وعلم الحيوان وعلوم الفلك .

وقد سأله ذات يوم فى أوائل الستينيات الشاعر الأديب المرحوم صالح جودت :

- ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا ؟

- فأجابه : أقرأ كتابًا عن حياة الممثلة الفرنسية بريجيت باردو !

وتساءل صالح جودت مندهشًا : العقاد العملاق ، يقرأ عن بريجيت باردو ؟!

فرد عليه العقاد بهدوء : ولمَ لا ؟ ليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئًا ما مهما كانَت ضآلته ، وفى حياة كل إنسان ما يستحق أن يتأمله المرء ويستفيد به ، فإن لم أستفد من الكتاب التافة شيئًا على الإطلاق فقد عرفتُ منه على الأقل كيف يكتب الكتاب التافهون وفيم يفكرون ؟

وقد لاحظت على نفسى منذ سنوات طويلة أننى لا أكاد ألتقى بأى إنسان يقترب من الستين أو تجاوزها وأستشعر فيه بعض الحكمة ورزانة التفكير حتى أبادره بهذا السؤال التقليدى : متى تكتب مذكراتك ؟ فيندهش غالبًا من أفاجئهم بهذا السؤال ويختلف رد الفعل من شخص إلى آخر ، فيقول لى أحدهم وما شأنى بالكتابة ولستُ من أهلها ؟ ويقول آخر : وماذا فى حياتى يستحق أن أسجله على الورق ويقرأه الناس ويقول ثالث : وحتى لو فعلت ، فأين الناشر الذى ينشر كتابًا عن حياة إنسان غير معروف إلخ .

فلا أيأس لمثل هذه الإجابات المكررة ، وأروح أحاول إقناع محدثى بأن حياة كل إنسان مهما كان شأنه لا تخلو من تجارب إنسانية عميقة وخبرة عملية اكتسبها من صراعه مع الأيام خلال رحلة العمر ،

ومن المفيد جدًا أن يُشرك غيره فيها كما استفاد هو مما قرأه للأدباء والمفكرين من كتابات ذاتية تتناول حياتهم الشخصية وتجاربهم مع الحياة . . إلخ .

ورغم تكرار المحاولة فلم أنجح خلال عشر سنوات حتى الآن فى إقناع أحد بأن يكتب حياته إلا مرة واحدة ، حين أقنعت رئيس إحدى محاكم الاستئناف هو المستشار الراحل ماهر برسوم بأن يكتب مذكراته عن ٤٠ عاما أمضاها فى القضاء ، فتحمس الرجل للفكرة ورجع إلىّ بعد أسابيع ومعه مخطوطة كاملة لكتابه ، وسألنى كيف ننشره فرشحت له ناشراً من معارفى وعرَّفته به ، فلم تمض فترة أخرى حتى طلب منى أن أكتب مقدمة لمذكراته ، وكتبتها وصدرت بعنوان «مذكرات مستشار مصرى» وسعدتُ بهذه المذكرات كثيراً وقرأتها أكثر من مرة ، ومازلت أذكر منها ما رواه عن استقبال النائب العام له فى أوائل الخمسينيات مع زملائه من وكلاء النيابة الجدد ليؤدوا اليمين القانونية أمامه تمهيدًا لبدء عملهم ، وكيف خطب فيهم النائب العام وقتها بلغة عربية بليغة وأسدى إليهم نصائحه الثمينة بأن يقيموا العدل ويتجنبوا مواطن الشبهات فى حياتهم الشخصية ، وكان من بين نصائحه الهامة لهم لكى يحققوا ذلك ، أن يتجنبوا الاختلاط بثلاث فئات من البشر خارج حدود المكتب أو ساحة المحكمة هى : ضباط الشرطة ، والمحامون ، وأصحاب القضايا المعروضة عليهم ، لكى

يحتفظوا بحيادهم ولا يتأثروا فى عملهم بالصداقة والاعتبارات الشخصية .

كما لازلت أذكر منها أيضًا ما حكاه عن فترة عمله كقاض بمحكمة أسوان حين كان ينظر نزاعًا بين شقيقين من أبناء النوبة حول ميراث ، ووقف الخصمان أمامه فلاحظ أن أصغرهما يتعدَّى الستين من عمره ومريض للغاية ، حتى ليكاد يعجز عن الوقوف ، فطلب إحضار مقعد له وأذن له بالجلوس ، فلم يجلس ، فكرر له الدعــوة لأن يجلس فرفض بإصرار ، وظنّ القاضى أنه يتحرَّج من الجلوس أمام رئيس المحكمة وهو فى موقف النزاع ، فسأله متعجبًا : لماذا لا تجلس وقد أذنت لك بذلك ؟

فأجابه فى حياء بأنه لا يستطيع أن يجلس وشقيقه الأكبر واقف لأن هذا ليس من أعرافهم وتقاليدهم فى النوبة ولا من حُسن الأدب ، فإذا كانا قد اختلفا حول الميراث وأحالا أمره للقضاء ليفصل بينهما بالحق ، فإن ذلك لا يعنى أبدًا أن ينتقص شيئًا من احترامه لأخيه الأكبر ولا أن يجترئ على الجلوس وهو واقف !

واغتنم القاضى الأديب هذه الفرصة الثمينة ، وحدّث الشقيقين طويلاً - وقد توسم فيهما الطيبة والخلق - عن صلة الرحم ووشائج القربى التى تعلو فوق كل أعراض الدنيا ونصحهما بالتراضى حول الميراث والاحتكام فيه للأهل وعقلاء العشيرة ، فإذا بالشقيق الأكبر

يعلن على الفور تنازله عن الدعوى ويخرج الشقيقان معًا يتساندان ، مودّعين من كل الحاضرين بالاحترام والإعجاب !

لكنه فيما عدا المستشار ماهر برسوم لم يستجب لى أحد للأسف ويكتب مذكراته على كثرة من دعوتهم لذلك .

ومذ فترة اتصلت بالداعية الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالى ودعوته لأن يكتب مذكراته ويُثرى بها معارفنا وخبرتنا بالحياة فقال لى أنه قد فكّر فى هذا الأمر طويلاً ورأى فى النهاية أن نشر مذكراته فى الظروف الحالية قد يُسىء إلى بعض الأشخاص الذين يتناولهم فيها ، وهو لا يريد أن يسىء إلى أحد حتى ولو كان اختلف معه فى بعض مراحل حياته .

وجادلتُه فى ذلك بعض الوقت واقترحت عليه أن يكتب حتى ولو قصة نشأته الأسرية والمؤثرات العائلية والاجتماعية التى كوَّنت شخصيته فى مرحلتى الصبا وبواكير الشباب كما فعل عميد الأدب العربى طه حين فى أجزاء «الأيام» الثلاثة ، لكنه لم يتحمس لذلك للأسف ، وقال لى إنه يفضل أن يدع ذلك «للمستقبل» !

ولم تمض شهور على حديثنا هذا حتى كان الأجل المحتوم قد وافاه وهو يشارك فى ندوة علمية بالمملكة العربية السعودية ودفن بأرضها رحمة الله عليه . . وضاعت علىّ وعلى الآخرين فرصة الاستفادة بقراءة مذكراته . . ليس فقط لكى أستمتع بها وإنما لكى أزداد إعجابًا

بأبيه المتنور ، الذى التحق ابنه بالمعهد الدينى بالإسكندرية فاتخذ على الفور أجرأ قرار يستطيع أب يرعى ابنه ويفضله على نفسه أن يتخذه ، فصفَّى تجارته فى بلدته وانتقل معه إلى الإسكندرية ليتيح له فرصة تلقِّى العلم ولو على حساب مصلحته الشخصية ، وافتتح لنفسه مكتبةً يعرض فيها الكتب الدينية والأدبية ودون أى سابق خبرة بتجارة الكتب أو المكتبات ! وفى هذه المكتبة نَهَل الشيخ الفتى فى صباه من عيون التراث العربى واكتسب أسلوبه الأدبى الرفيع فى الكتابة ، وبذور ثقافته الدينية العريضة ، وفكره المتنور العظيم .

وفى هذه المكتبة عمل هذا الأب الجليل بضع سنوات حتى حصل ولده الشاب على شهادة الثانوية الأزهرية من معهد الإسكندرية وانتقل إلى جامعة الأزهر بالقاهرة . ويبدو أنه كان إلى جانب تقواه وصلاحه وإحساسه الفطرى الراقى بواجبه الأبوى ، خفيف الروح والظل ، فلقد روى لى عنه فضيلة الشيخ الغزالى ، أنه خلال عمله بتجارة الحبوب والغلال كان يسافر من بلدته إلى الإسكندريةليشترى بعض تجارته وفى إحدى رحلاته هذه سقطت منه خلال سيره فى الطريق حافظة نقوده وبها مبلغ كبير واكتشف ذلك وهو فى محل أحد التجار فرجع من حيث جاء وراح يبحث عنها فى الأرض لعله تتحقق المعجزة ويجدها حيث سقطت ، فإذا به يجدها بالفعل سليمةً لم تُمَسْ فالتقطها ثم رفع يده إلى السماء بعفوية وتمتم معبراً عن شكره لربِّه : هات يدك أقبِّلها !

أما الكاتب الصحفى المرحوم محمد جلال كشك صاحب الثقافة الموسوعية فى الدين والاقتصاد والتاريخ والسياسة ، والقلم اللاذع الساخر الجرىء ، فقد انزعج للفكرة حين اقترحتها عليه منذ سنوات ، واستنكر أن يكون قد بلغ من السن ما يدعوه إلى كتابة مذكراته ، وقال لى إن الإنسان لا يكتب سيرته الذاتية إلا حين يكون قد أدَّى رسالته ولم يعد له من دور يؤديه فى الحياة فى حين أنه محارب فى ساحة الفكر ، والمحارب لا يضع سلاحه جانبًا وهو فى حومة القتال ليراجع حياته ويكتب مذكراته ! ولم أنجح للأسف فى إقناعه بأنه حتى المحارب قد تكون له استراحة خلال المعركة يتذكر فيها أعزاءه ويحن إليهم قبل أن يعود إلى القتال مرة أخرى ، ومع ذلك فقد أثار اقتراحى خواطره فأرسل إلىَّ مقالاً نشرته له فى مجلة الشباب بعنوان : « هل حان وقت المذكرات » روى فيه قصة اقتراحى ورفضه له وانتهى فيه إلى أنه مازال شاب العقل والقلب ، ولم يصبح بعد من أرباب المعاشات لكى يفكر الآن فى تدوين سيرته الذاتية ودروس حياته ، ولم يمض سوى عامين فقط بعدها للأسف إلا ورحل جلال كشك فجأة عن الحياة بأزمة قلبية فاجأته وهو مشتبك فى مناظرة تليفونية أجرتها على الهواء إذاعة صوت أمريكا بينه وبين نصر أبو زيد حول أزمته المعروفة وانفعل خلالها جلال كشك انفعالاً حاداً وهو يستنكر ما أورده أبو زيد فى بحثه الذى أثار حوله الجدل فعاجلته الأزمة القلبية الحادة ومات رحمه الله بعد لحظات ، وخسرت المكتبة

العربية كتابًا نادرًا كان يمكن أن يضيفه إليها عن حياته الحافلة ومعاركه الفكرية العديدة .

ومنذ سنوات دُعيت مع عدد من الصحفيين إلى المدينة المنورة للاطلاع على توسعات الحرم النبوى قبيل انتهاء آخر مراحلها ، وصحبنا الداعون فى جولة فى المسجد النبوى ، ونزلنا إلى البدروم الشاسع حيث تقع غرف وماكينات التحكم بالكمبيوتر فى الإضاءة والتكييف والأجهزة السمعية ، ومظلات الساحة المكشوفة ، واصطحبونا أيضًا عبر نفق طويل يمتد بضعة كيلو مترات تحت الأرض إلى محطة التكييف المركزية التى تضخّ الهواء البارد إلى المسجد الكبير ، ولاحظت أن من يشرح لنا معظم التفاصيل الفنية مهندس مصرى عجوز يرتدى البدلة الأنيقة والكرافيت ويتفجّر نشاطًا وحيوية رغم كبر سنه ، ثم جاءت جلستى إلى جواره فى سيارة الميكروباص خلالَ رحلة العودة إلى جدة ، فإذا بى أعرف أنه المهندس الاستشارى الكبير الذى صمم كل تفاصيل هذه التوسعات ، وأنه قد اختير لهذا العمل الهام لسابق خبرته فى تصميم بعض مراحل توسعات الحرم المكى السابقة ، وأنه ليس فى الستينات من عمره كما ظننت وإنما هو فى ربيعه الرابع والثمانين ( وقتها أطال الله عمره ) وأنه المهندس الذى صمم وأشرف على تنفيذ مبنى المجمع الشهير بميدان التحرير بالقاهرة ودار القضاء العالى فيها وعدد كبير من المبانى الشهيرة والمساجد الكبرى فى مصر والعالم العربى وتركيا ، ليس هذا فقط بل وأنه أيضًا

قد جاء إلينا فى المدينة المنورة صباح يوم زيارتنا لها من لندن بعد أن استدعته مجموعة شركات بن لادن التى نفّذت توسعات الحرم المدنى، ليرافقنا فى هذه الزيارة فضلا عن أنه زميل نفس الدفعة بكلية الهندسة التى تخرج فيها المهندس المعمارى الشهير حسن فتحى . عرفت كل ذلك عن الدكتور مهندس كمال إسماعيل ، وتعجبت كيف وهو هذا المهندس المعمارى العظيم لم ينل بعض شهرة حسن فتحى ولا يكاد يعرفه أحد خارج دائرة المتخصصين ؟ وحكى لى المهندس الاستشارى الكبير أن حسن فتحى لم يحصل إلا على بكالوريوس الهندسة فقط أما هو فقد حصل على الماجستير ثم أوفدته جامعة القاهرة فى بعثة إلى باريس فى بداية الثلاثينات للحصول على الدكتوراه ، فكان من بين أصدقائه هناك وقتها طالب الدكتوراه فى القانون توفيق الحكيم ، وكان يدرس على نفقته الشخصية ويرسل إليه أبوه من مصر مبلغًا «كبيرًا» كل شهر هو عشرة جنيهات مصرية كاملة كانت تغطى نفقات الدراسة . . وإيجار المسكن وتسمح له أيضًا ببعض الرفاهية !

ورغم إشارته فى حديثه معى إلى أن حسن فتحى لم يحصل على أية شهادة عليا بعد البكالوريوس فقد استدرك قائلاً : لكنه على أية حال قد نجح وحصل على شهرة عالمية مدوية !

وتأملت أنا هذه المفارقة الغريبة طويلاً خلال رحلة السيارة وانتهيت من خواطرى وتأملاتى إلى أن حسن فتحى قد ذاعت شهرته فى بلده

وفى العالم كله واستعانت به المكسيك فى تصميم قرى الفلاحين النموذجية هناك وحصل على جائزة أفضل مهندس معمارى فى العالم ولقب سيد البنَّائين من أكبر الهيئات المعمارية الدولية ليس فقط لأنه كان مهندسًا عظيمًا وإنما أيضًا لأنه كان صاحب «دعوة» وأفكار جريئة فى العمارة ، يدعو إليها وينشرها ويدافع عنها وهى الدعوة إلى البناء بنفس مواد البيئة المحلية من حجارة وطين وبأقل التكاليف مما عرف بعد ذلك «بعمارة الفقراء» إلى جانب موقفه الرافض للكتل الخرسانية الصمّاء التى تشوه جمال البيئة فى الريف وترفع تكاليف المسكن ، كما كان يكتب ويحاضر ويؤلف الكتب عن أفكاره ودعوته فتجمع حوله الأنصار الذين اعتنقوا أفكاره فى البناء والعمارة وتُرجمت كتبه إلى اللغات الأجنبية واختلف معه المعارضون لأفكاره وهاجموها وأصبح له مريدون يقلّدونه فى مصر والدول العربية وأوربا وأمريكا اللاتينية .

أما هذا المهندس العظيم الذى يجلس إلى جوارى فى رحلة العودة فهو رجل أكاديمى عبقرى أيضًا درس واجتهد وأبدع فى تصميماته ، وأشرف على تنفيذ مشروعات كبرى فى عدة دول ، ولكن فى إطار السياق العام لقواعد فن العمارة السائدة ولم تكن له معركة يحاربها ولا دعوة يدعو إليها لهذا طغت شهرة المبانى التى أقامها على شهرة اسمه هو نفسه لأنها لا تثير حولها جدلاً بين المؤيدين والمعارضين كما كان الحال مع حسن فتحى .

ورغم ذلك فمازال عجبى قائمًا : كيف لا يكاد يعرفه أحد بعد هذا التاريخ الحافل من الإبداع المعمارى ؟ ولقد سألته بالطبع سؤالى التقليدى : لماذا لا تكتب مذكراتك وتروى لنا فيها قصة حياتك ونبوغك وإبداعك وتجاربك مع الحياة والعمل والأسرة إلخ ؟

فأجابنى للأسف بأنه لا يرى فى حياته ما يستحق أن يعرفه الناس وحتى لو رأى ذلك فما شأنه هو والكتابة وعنائها وهو رجل معمار وتصميمات هندسية وليس كاتبًا ولا أديبًا .

لكن لا يأس مع الحياة . . صحيح أننى لم أنجح فى إقناع أحد بعد المستشار الراحل ماهر برسوم ، لكنى لم أيأس ولن أكفَّ حتى النهاية عن أن أقول لكل من أتوسم فيه الخبرة بالحياة وثراء تجربته معها : متى تكتب مذكراتك ؟



# كتب للمؤلف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١ - | أصدقاء على الورق | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نفد) |
| ٢ - | يوميات طالب بعثة | أدب رحلات | الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نفد) |
| ٣ - | هتاف المعذبين | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نفد) |
| ٤ - | صديقي لا تأكل نفسك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٠ (نفد)<br>الطبعة الرابعة ١٩٩٦ |
| ٥ - | نهر الحياة | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٠<br>الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ٦ - | العصافير الخرساء | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩١<br>الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ٧ - | صديقي ما أعظمك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩١<br>الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ٨ - | العيون الحمراء | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٢<br>الطبعة الثالثة ١٩٩٥ |
| ٩ - | افتح قلبك | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٢<br>الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١٠- | اندهش يا صديقي | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٢<br>الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١١- | أزواج وزوجات | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٣<br>الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ١٢- | أرجوك لا تفهمني | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٣<br>الطبعة الثانية ١٩٩٦ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٣- | رسائل محترقة | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٣ |
| | | | الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١٤- | وقت للسعادة .. | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٣ |
| | وقت للبكاء | | الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ١٥- | شركاء فى الحياة | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٣ |
| | | | الطبعة الثالثة ١٩٩٦ |
| ١٦- | أماكن فى القلب | قصص إنسانية رومانسية | الطبعة الأولى ١٩٩٤ |
| | | | الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١٧- | لا تنسنى | قصص رومانسية | الطبعة الأولى ١٩٩٥ |
| | | | الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١٨- | نهر الدموع | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٥ |
| | | | الطبعة الثانية ١٩٩٦ |
| ١٩- | طائر الأحزان | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٦ |
| ٢٠- | اعط الصباح فرصة | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٦ |
| ٢١- | خاتم فى إصبع القلب | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٦ |
| ٢٢- | وحدى مع الآخرين | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٦ |
| ٢٣- | أقنعة الحب السبعة | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٦ |
| ٢٤- | سائح في دنيا الله | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |
| ٢٥- | الحب فوق البلاط | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |
| ٢٦- | أوراق الليل | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |
| ٢٧- | مكتوب على الجبين | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |
| ٢٨- | هو وهى والآخرون | قصص إنسانية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |
| ٢٩- | سلامتك من الآه | مقالات وصور أدبية | الطبعة الأولى ١٩٩٧ |

# فهـرس الكتـاب

الصفحة


مقــدمة . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٥

١ - ضيَّعتُ الشلن ! . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٩

٢ - إبرة . . وفـتلة ! . . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٩

٣ - تحت المظلة ! . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٩

٤ - نقطة تحوُّل ! . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٣٩

٥ - الأسـتـاذ ديكارت ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ٤٩

٦ - لا تنس وضع الغطاء ! . . . . . . . . . . . . . . . . ٥٧

٧ - . . لكنه شخص آخر . . . . . . . . . . . . . . . . . ٦٩

٨ - كن عبقريًا . . واصنع ما شئت ! . . . . . . . . . . . . ٨١

٩ - سلامتك من . . الآه ! . . . . . . . . . . . . . . . . ٩١

١٠ - (٢) سلامتك من . . الآه ! . . . . . . . . . . . . . . ١٠١

١١ - ثرثرة صيفية ! . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ١١٣

١٢ - مُطْرِب «العَوَاصف» ! . . . . . . . . . . . . . . . . ١٢٥

١٣ - عصفور . . كلَ إنسان ! . . . . . . . . . . . . . . . ١٣٥

الصفحة

١٤- إلا أنا . . وأنت ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٤٥
١٥- الأصابع الملوَّثة ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٥٥
١٦- الخوف يا صديقى ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٦٣
١٧- عيون العظماء ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٧٣
١٨- كيف تأكل البطاطس . . وتصبح أديبًا عظيمًا ؟! . . . . . ١٨٣
١٩- أحلى الأسامى ! . . . . . . . . . . . . . . . . . ١٩٣
٢٠- أرجوك . . أتوسل إليك : أكتب مذكراتك ! . . . . . . ٢٠٣




ت : ٥٩٣٢٧٠٦



من المهم جداً أن يجد كل إنسان فى حياته من يخفق قلبه له بالحب والعطف والاهتمام ، ومن يقول له حين يحتاج إلى التعاطف الإنسانى : سلامتك من الآه . وإلا تحولت الحياة إلى صحراء قاحلة وأرض جدباء لا تنبت إلا المرّ والحنظل . وتتوقف علاقتنا بالآخرين وتعاطفهم معنا على قدرتنا على أن نتعلم جميعًا كيف نحيا حياتنا بالطريقة الصحيحة ، وكيف نبتهج بالحياة ونستمتع بها رغم الصعاب والآلام ، وكيف نحاول دائمًا تحجيم مساحة الشر والخسائر الإنسانية فيها ، ونوسع من دائرة الخير والحق والجمال فى رحلتها . . وأن نؤمن دائمًا بأهمية الخير فى حياتنا ، وبالمثل العليا الجديرة بأن نعتصم بها وسط هدير أمواج الحياة المتلاطمة من حولنا .

وليس هناك أجدر من قلم الأستاذ عبد الوهاب مطاوع على رسم وتوضيح الطريق الذى يمكن أن نسير فيه حتى نتعلم تلك القيم السامية ، فهو يصحبنا من خلال هذا الكتاب مع فصول من الحياة بكل ما فيها ، مصوراً معاناة أبطالها ، شارحًا لهم سبيل الخلاص . وكيف يعيشون بهجة الحياة ويؤمنون بها متسلحين بالحماس والشباب كحالة وجدانية وعقلية تجعلهم قادرين على التعامل مع الحياة متعلقين دائمًا بالأمل فى غد أفضل ، وألا نفقد أبداً قدرتنا على تذوق الأشياء الجميلة فى الحياة والابتهاج بها ، مهما بدت للآخرين من فاقدى الحماس أشياءً بسيطة وعادية .

**الناشر**



دار الأمين طباعة • نشر • توزيع DAR AL-AMEEN
٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة. تليفون/ فاكس ٣٤٧٣٦٩١
١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم. الجيزة
١٠ شارع بستان الدكة . من شارع الألفى مطابع سجل العرب. القاهرة ت : ٥٩٣٢٧٠٦